



المجلد الثاني
العِبَرِيَّاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ

٢

دار الكتب والكتاب



[illegible]

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقائد

المجلد الثاني

العقائد الإسلامية - ٢

يحتوي على

عقيدة الإمام علي
الحسين أبو الشهداء
فاطمة الزهراء والفاطميون
أهل البيت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للوَلَفِ والناسِر
دار الكتب اللبناني
رَقِيًا : كتابان - بيروت
ص ب : ٢١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٩٧٤

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّادُ

عَبْقَرِيَّةُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تقديم

في كل ناحية من نواحي النفوس الانسانية ملتقى بسيرة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطب الانسان حيثما اتجه اليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل

في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، وبراءون للمتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جيعاء ظماء .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلمصوف كأبي العلاء لا يظن به التشيع بل ظنت بإسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشهيد ين علي ونجلاه شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا ن ، وفي أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها في سير الشهداء غاية ، وكثيراً ما تتمطش اليها سرائر الأمم في قصص الفداء التي عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفي سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الانسانية

في الأجواء أو تفوص في الأغوار . فهو الشجاع الذي نزت به الشعرية
الانسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك في تعظيمه جهود
العيان وعشاق الإعاجيب ... ألم يحارب المردة في فلواتها ؟ .. ألم يخلق
له الرواة أندادا من المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله ؟ .. ألم يستصغر
عليه المحبون الغالون في الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا
له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه ؟ .. ألم يوشك من
وصفوه ووصفوا وقعاته وفككاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو
أصدق الأبطال في أصدق مجال

وتلتقي سيرته - عليه رضوان الله - بالفكر كما تلتقى بالخيال
والعاطفة ، لأنه صاحب آراء في التصوف والشرعة والأخلاق سبقت
جميع الآراء في الثقافة الاسلامية ، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن
يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور ، ولأنه أوتي من
الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المتقين منه بذكاء الساسة المتغلبلين ،
فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة
العمل ومجرى الأمور ..

وللدوق الأدبي - أو الذوق الفني - ملتقى بسيرته كملتقى الفكر
والخيال والعاطفة ، لأنه رضوان الله عليه كان أديبا بليغا به نهج من
الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده
المتذوقون ، وإن تطاولت بينه وبينهم السنين . فهو الحكيم الأديب ،
والخطيب المبين ، والمنشئ الذي يتصل انشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات
النائرين والناظمين ..

وللنفس الانسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل
والتفكير ، وتذوق الحسن الجميل من التعبير
فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمن من الأزمان ، وهي
ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة الناشئة أبدا
على رأي من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان

فقد يفتر العقل والدوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذي لم يفتر قط ولا فخاله يفتر في حين من الأحيان خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين وان ها هنا للمجال الرغيب والملقى القرب في سيرة هذا الامام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » .. أو حين قال : « يهلك في رجلان : محب مفزط بما ليس في ومبغض يحمله شنائي على أن ييهتي »

وصدق الامام الكريم في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين : هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه .. ويستسيهم فيصرون على الكفر أي إصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون وهم يساقون الى الحفيرة الموقدة : إنه الله وإنه هو الذي يعذب بالنار ! ..

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة الى الله عن عصيانه .. ويسبون على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب ..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول إناس : إله . ويقول إناس : كافر مطرود من رحمة الله ! ..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الامام في أكثر من طريق : وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق الى التجديد والاصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علماً يلتف به كل مغضوب ، وصيحة ينادي بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة في

حياته . وجعل الفاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أو كأنها النفس الذي يستروح اليه كل مكظوم .. فمن نازع في رأي ، ففي اسم علي شفاء لنوازع نفسه ، ومن ثار على ضيم ففي اسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملقته بينه وبين علي في وجهه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته . وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الامام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون

وكل ملقته من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما يعلمه من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يتول بها الى البساطة والوضوح ، وكلمات قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوصل الى مقطع الحق فيها . فالبطل الذي يلتقي بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقي بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهل من الذي يلتقي بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقي في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغف بالبلاغة أو رفاة على التقوى ، مزيداً على الخيال والشعور والتفكير

لهذا نعلم غير مترددين في علمنا أن واجبنا في « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعض التيسير ، وان لم يكن فيه كل التيسير .. نرجع « بعبقرية الامام » الى الحقيقة الوسطى

نرجع من عشرين طريقاً الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة لا تؤدي اليها أقرب أداء . وحسبنا اننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله ..

عبدالله محمود العقاد

صفات

المشهور عن علي كرم الله وجهه انه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي في جملتها: النبيل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيل ان اسمه الذي اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيَّره أبوه فسمَّاه علياً وبه عرف واشتهر بعد ذلك ..

وكان علي أصغر أبناء أبيه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الأخوة الى أبيه ، فلما أصاب القحط قریشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم . فأخذ العباس طالباً ، وأخذ حمزة جعفر ، وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعوضه إيثار النبي بالحب عن إيثار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد

فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه
وربما صح من أوصاف عليّ في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء
سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من
عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدقّ فهمها والتنبه لها على من كان
في مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت
له أعباءه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم
في شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضي الله عنه رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة ، حافظاً
لتكوينه المكين حتى فاهز الستين ..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة انه كان رضي الله عنه ربعة أميل
إلى القصر ، آدم - أي أسمر - شديد الادمة ، أصلع مبيض الرأس
واللحية طولها ، ثقل العينين في دمع وسعة ، حسن الوجه واضح
البشاشة ، أعيد كأنما عنقه إبريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش
كمشاش (١) السبع الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت
ادماجا . وكان أبجر - أي كبير البطن - يميل إلى السمعة في غير
افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق
مستدقها ، شثن الكفين ، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي ،
ويقدم في الحرب فيقدم مهرولا لا يلوي على شيء

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة في المكانة
والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس يده فجلد به
الأرض غير جاهد ولا خافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك
بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه انه لم يصارع أحداً إلا
صرعه ، ولم يبارز أحداً إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه
إلا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة
فتنخلع لها قلوب الشجعان

(١) الثنتان : راس المظم

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه انه كان لا يبالي بالحر والبرد ، ولا يحفل بالطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء و ثياب الشتاء في الصيف ، وسئل في ذلك فقال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الي وانا أرمد العين يوم خيبر فقلت : يا رسول الله ، اني أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجلت حرا ولا يرذا منذ يومئذ .. »

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والايذاء . فقد كان يرعد للبرد اذا اشتد ولم يتخذ له علة من دثار يقيه . قال هرون بن عترة عن أبيه : دخلت على علي بالخورق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبا وبأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم شيئا ، وما هي الا قطيقتي التي أخرجتها من المدينة

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء . انما هي مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس

وكان الى قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا في الحديد ينادي جيش المسلمين : من يبارز .. فصاح علي : أنا له يابني الله .. قال النبي وبه اشفاق عليه : انه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادي : ألا رجل يبرز؟ .. وجعل يؤنبهم قائلا : أين جنتكم التي زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟ .. أفلا تبرزون الي رجلا ؟ .. فقام علي مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمرو ، وهو يجيبه :

وان كان عمراً .. حتى أذن له فمشى اليه فرحاً بهذا الاذن الممنوع كأنه
 الاذن بالخلاص .. ثم نظر اليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل
 يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ ..
 قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي .. من أعمامك
 من هو أسن ، واني آكره أن اهريق دمك ، فقال له علي : لكنني والله
 لا آكره أن اهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى اليه بسيف كان كما قال
 واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل علي الضربة بدرقته فقلدها السيف
 وأصاب رأسه ، ثم ضربه عليّ على جبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط
 ونهض ، وثار الغبار ، فما انتجلى الا عن عمرو صريحا وعلي يجأر بالتكبير
 وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى على مصابه ،
 لأنه أحجى المصائب ، وأقلها معابة الا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود
 تقول على سبيل التأسى بعد موته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله
 بكيته أبدا ما دمت في الأبد
 لكن قاتله من لا نظير له
 وكان يدعى أبوه بيضة البلد

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها
 ومن يصاب ..

ويزيدها تشريفا انها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة
 الشجعان الأقوياء .. فلا يعترف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك
 الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي . وهي التورع
 عن البغي ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة
 الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال

فمن تورعه عن البغي ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبدأ
 أحدا قط بقتال وله منلدوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعونَّ

الى مبارزة . فان دعيت اليها فأجب . فان الداعي اليها باغ والباني مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له انهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . وسيفعلون ! .. »

وكذلك فعل قبل وقعة الجبل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل كل وقعة صفرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض : يدعوهم الى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده بالسيف قط الا وقد بسطها قبل ذلك للسلام

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبا اعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرا ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : انما هو سب بسب أو عفو عن ذنب

وقد رأينا أنه كان يقول لعمر بن ود : اني لا أكره أن اهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب في اهراق دمه الا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنتف ، وقال : اذن تتحدث العرب بفراري ، وناشدته : يا عمرو . افك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين الا أخذت منه احدهما . قال : أجل . قال : فاني أدعوك الى الاسلام أو الى التزال . قال : ولم يا ابن أخي ؟ .. فواؤه ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بدّ بعد ذلك من إحدى اثنتين : أن يقتله أو يقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم الا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة : فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كرز بن الصباح الحميري فصاح بين الصنفين : من يبارز ؟ .. فخرج اليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى :

من ييارز ؟ . فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من ييارز ؟ .. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه ، ثم نادى رابعة : من ييارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول الى الصف الذى يليه ، وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدلل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى ندائه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسعيا الصفوف : يا أيها الناس . ان الله عز وجل يقول : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » ، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم .. ثم رجع الى مكانه

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مديرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلّبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى علة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوائه اتقاء لضربه .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سَوَّغَ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفيّة أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتم أولادي . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع ؟ .. فاتهره وهو يقول : ويحك ؟ .. انا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟ .. وانه لفي طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمهم بالعمائم وقلدهن السيوف .. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفقت وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي .. فلما وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : انما نحن نسوة وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان في حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال ..

وتعدلها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمشلوا بقاتله وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء مجزون يفيض كلامه بالألم والمودة ، وأوصى أتباعه الا يقتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين وان كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين ..



وتتقرن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضج للماء ، أو بالاشعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية الا كانت معها تلك الصفة التى تشير اليها ، وهى صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هى به ولا هى من معدنه وسمته ، وان شابهته فى بعض الملامح والألوان

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خاذع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع ..

أما هذا الاعتزاز الذى تشير اليه ، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى

صورة الاعتزاز ، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله في مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في ارباب عدوه واضعاف عزيمته من يتصدى لحربه .. مثله هنا كمثل العروض التي تعتمد اليها الجيوش لاعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره وبيته به في غير حاجة الى التيه ولهذا تحسن الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهدوه وتحذثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس — بل لملهم أوجبوا عليه — أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب اذ يتقدم لنزاله . وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقماته والتهويل بضرباته والاشادة بفضواته ، وعلموا انهم — وقد احتاجوا الى شجاعته — محتاجون كذلك الى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه ، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد الى القلوب



ومن تأصل هذه العادة في الطباع انها تشاهد في جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تمعد . فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو المعجماء ينازل قرنا له الا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وانتثار نظره وتنفيس ريشه أو شعره ، ويقف الانسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق يده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فاذا هو الفخر والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام ..

هذه الصفة لازمة لفارسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه ، وينظر أحدهم الى قرنه وهو يهجم عليه وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضلها ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو

أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومرو الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنيم ، فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك علي يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبي طالب زهوه . قال رسول الله : انه ليس به زهوه ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التي يتلى بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس انه يحتاج الى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها ولا يعتمد ابداءها ..



وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حباً ودرجاً ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعه الطفولة الباكرة يوما أن يعلم انه شيء في هذه الدنيا وانه قوة لها جوار يركن اليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبي عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية الى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان عليا في تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو في الخمسين أو الستين .. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصبح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأيد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

علي هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش وعلى هذا هو الذي تصدى لمرو بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه

ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبي :
اجلس . انه عمرو . فيقول : وان كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف
ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف الا الشجاعة التي هو متملىء بها واثق
فيها في غير كلفة ولا اكتراث
وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا
جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تمكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن
يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل ، وأتفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة
بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأى حين كان
يقول : « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسى بيده لا تسألوني في
شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فنة تهدى مائة وتضل مائة الا
أنأتكم بناعها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها »

ومن شواهدا انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق :
« ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى ، عبدت الله قبل أن
يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين »

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصماه
طلحة والزبير أنه ترك مشورتها قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع
لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعت . وما استن النبي صلى الله عليه وسلم
فاقتديته . فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم
جهلته فأستشيركما واخوانى المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما
ولا عن غيركما ... »

وأبدى هذه الخليفة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال
على أن يتألف . بل كان يقول : « شر الاخوان من تكلف له » ويقول :
« اذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون منه
الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه ، ولا سيما اذا هم انتظروه من
أرزاق رعاياه وحقوقهم التي أوثمن اليها . فيحسبون انها الجفوة البينة

وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك .. انما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها ، وانما هو امتعاض المغموط المسيء ظنا بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاراه ألا يتكلف الاخفاء ، فاذا التفت قاصدا الى ما في نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشدد في اجتنابه ، ويوصى من أحب : « اياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » ... « واعلم ان الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب »

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام انه كان لا يتكلف اظهار شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك »

وكافت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة . وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء . كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وانما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها : كان مثلا يخرج الى مبارزته حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج اليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ .. وكان يغفل الخضاب أحيانا ويرسل الشيب ناصعا وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكتراته لكل خضاب ساترا ما ستر ، أو كاشفا ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها .. أو هي قرية للشجاعة في نفس الفارس النييل وقلما تفارقها ، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترى به الرجل على الضر والبلاء كما يجترى به على المنفعة والنعماء . فما استطاع

أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه ،
وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج الى المصانعة بين
النصرء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعتسوه
بالخلاف . فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه
أقرب الناس اليه : انه رجل يعرف من الحرب شجاعته ولكنه لا يعرف
خدعتها . وكان أبدا عند قوله : « علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث
يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل هلى
علمك ، وأن تبقى الله في حديث غيرك » ..

وصدق في قواه وليلانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه . فلم
يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان
وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على
الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى
ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى
تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات :
« أزهد الناس فى الدنيا علي بن أبى طالب » . وقال سفيان : « ان
علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنه على لبنه ولا قصبة على قصبة »
وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إثاراً للخصاص التى يسكنها
الفقراء . وربما باع سيفه ليشتري بئنه الكساء والطعام . وروى النضر
ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على على عليه السلام
فاذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكمر يابسة . فقلت : يا أمير
المؤمنين ، أأكل مثل هذا ؟ .. فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله
يأكل أيس من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار الى ثيابه —
فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا الحق به » ..

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كرازة
طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه ساحة يتبسط فيها حتى

يقال دعابة ، وروي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال له : « الله أبوك لولا دعابة فيك » وانه قال لمن سأله في الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلي أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فان ولي عثمان فرجل فيه لين ، وان ولي علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق »



وأغرق ابن العاص في وصف الدعابة فسمها « دعابة شديدة » وطلق يرددها بين أهل الشام ليقدر بها في صلاح الامام للخلافة ، وانما قول ان ابن العاص أغرق في هذا الوصف ، وان الدعابة المميدة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الاقراط فيه .. فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فرجا كان مرجح ذلك أن عليا خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال

والحق الذي لا مراء فيه انه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظامه وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

الى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفرق الناس في رأيه
رأين وان لم يكونوا من الشائين المتحيزين ، فيقول أناس انه كان على
قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به
الساعة الحازية ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس بل هو الاضطراب
والخرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وانهم لدونه في الفطنة والسداد .
وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال :
« والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية العذر
لكنت من أدهى الناس » ..



أما مقطع الرأى بين الرأيين فارجو أن تفصله في موضعه من الفصول
التالية مشفوعا بمنايا ، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجمالان
ما نبسطه في موضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تسعان لجدل طويل ،
وهما أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع
في فض المشكلات من العمل برأى الامام ، وان أحدا لم يثبت قط أن
خصوم الامام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصريفه ، لو وضعوا في
موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين
حرية أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك
هذه صفات تنتظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ،
وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن
الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور ،
وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له في حياته
أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شيء منها الا الذى اصطدم
بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تعسف المطامع أسباب
الظن فيه ثم تنفذ منه الى صميم

مفتاح شخصية

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير
وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة
وهي : النخوة ..

وقد كانت النخوة طبعا في عليّ فطر عليه ، وأدبا من آداب الأسرة
الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها
كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وان لم يطبع عليها وينشأ في
حجرها . لأن للغلبة في الشجاع ائمة تأبى عليه أن يسف الى ما يخجله
ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما ، وتمنعه أن يعمل في
السر ما يزرى به في العلانية

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به
نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال
والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتتم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط
في الشرف ، والحق انهما قائمان دائما كأنهما مودعان في طبائع الأشياء .
فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وان أفادوا
كثيرا وباء هو بالخسار

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ،
لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن
يغلبه أو يقتصر منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص ..
قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام

يصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويا بساتا واسعا وأخذوا
الشرعة - أى مورد الماء - فهي في أيديهم .. وقد أجمعوا على أن
يمنعونا الماء . ففزعنا الى أمير المؤمنين فخيرناه بذلك فدعا صمصمة
ابن صوحان فقال له : ائت معاوية وقل له انا سرنا مسيرنا هذا اليكم
ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار اليكم ، وانك قدمت الينا خيلك
ورجلك فقاتلتنا قبل أن تقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك
حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها اذ حلت بين
الناس وبين الماء . والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابك
فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم
وقيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوي الخبر ما معناه ان معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن
يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى
المفاوضة في أمر الخلاف ، فأتخذ معاوية مددا الى حراس المورد يحمونه
ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن
بالرمح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه
وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه
بالظلم كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون :
والله لا نسقيهموه . فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده اليهم يتشفع لهم
ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم
وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم
بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ، فأبى أن
يهتبلها وأغضب أعوانه انصافا لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال
ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أترأه يحل لنا دماءهم
ويحرم علينا أموالهم ؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو
منا ونحن منه ، ومن لجح حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر »

وسن لهم سئة الفروسية أو سئة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مديراً
ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترًا ولا يدوا يدا إلى مال
ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يمتلها فرصة عمرو بن العاص
وهو ملقى على الأرض مكشوف السواة لا ييالي أن يدفع عنه الموت
بما حضره من وقاء . فصدف بوجهه عنه آقا أن يصرع رجلا يخاف
الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازل في مجال صراع . ولو غير
على أتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء
فلم ييال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه



لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلام رضا الفروسية العززة
من جميع آدابها ومآثوراتها
فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله .. ولكنه لا يعادي
امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن فضال، ولا ميتا ذهبت حياته
ولو ذهبت في سبيل حربه .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على
قبره ليسكيه ويرثيه ويصلي عليه
وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس
من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام
فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين
قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سبائين ، ولكتكم لو وصفتكم أعمالهم
وذكرتم حالهم كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقتلتم مكان
سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ،
واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي
والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سئته هذه في بعض الأحيان فإذا به لا يشذ عنها الا
كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان .. فندر بين رجال السيف
من يسمع الكلمة المفضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجاري بها

غضبه الذى طبع على ابدائه ولم يطبع على كتمانته
ومن قبيل هذا كلمات قالها على^١ فى ابن العاص وفى معاوية وفى
الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدنا له كما سبوه
على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار
شعب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأفشى بين أنصاره
الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه
فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق
ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من
واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وإن امرأ ولى على قومه السيف وساق
اليهم الحنف لحري أن يمتته الأقرب ولا يأمنه الأبعد »

وطفق ابن العاص ينعتة بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسببه
على المنابر حتى وجب رده واحضاض زعمه . فقال رضى الله عنه فى بعض
خطبه : عجبا لابن النابغة !.. يزعم لأهل الشام ان فى دعابة وانى امرؤ
تلعابة : اعانس وامارس (١) .. لقد قال باطلا ونطق آثما . أما — وشر
القول الكذب — انه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل ،
ويخون العهد ويقطع الإل (٢) ، فاذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر
هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها . فاذا كان ذلك كان أكبر مكيدته
أن يمنح القوم سبته . أما والله انى ليمنعني من اللعب ذكر الموت . وانه
ليمنع من قول الحق نسيان الآخرة، انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن
يؤتية آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة (٣)

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون
عليه بما يغض من حقه ويهدح فى دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان
فى روية فكره ولا فى بواذر لسانه ، ولكن التفتات التى من هذا القبيل

(١) المعانسة : مضاربة الناس مزاحا ومنازلة النساء

(٢) الآ : القرابة والرحم

(٣) الآتية : العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة

شيء واتخاذ السبب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا الى القول
الباطل شيء آخر ..

ولقد كانت للامام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجري
في مجراها حيناً وتبدو غريبة عنها حيناً آخر في عرف بعض الناقدين ،
ومنها التفقه والزروع الى « التصوف » واستنباط حقائق الأشياء

فهذه في عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر
ما قدروه .. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟ .. أليس هو في
معدنه جهادا في الحق أو جهادا في الله ؟ .. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة
الفروسية من معدن واحد ؟ .. ألم نعهد في كل ملة وكل زمان قتات من
الناس يجاهدون لأنهم متدينون منتطسون ، أو يتدينون ويتطسون
لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالامام على رضى الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين
بل هو أخرى أن يسلكه فيها . ولا يخرج من الفروسية بعض المقال
في خصومه بل هي بؤادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية
بشتى عوارضها هي المفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه
النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه

اسلامه

ولد على في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ،
فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانا بمهد جديد للكعبة وللعبادة فيها
وكاد على* أن يولد مسلما ..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة
والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام
فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الاسلامية وعرف
العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه
وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من
محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيه الذي نشأ في بيته
ونعم بمطفه وبرّه . وقد رأينا الغرياء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم
وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ،
ويجمعه به جميل معروف : جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد
يحسه ابن أبي طالب ويأوى اليه ..

واختلفوا في سنه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ولعله
أسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند اعلان الدعوة المحمدية ،
وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة
غير قصيرة ، وليس ما يمنع عليا أن يآلف تلك العبادة في طفولته الباكرة
فاذا هو تفر منها ، وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكرة
فالعجيب انه يعود الى آلفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التي يعرف
فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قرّبه القرابة وحدها من الدين الذى دعى اليه ، فقد أصرّ كثير من أقرباء النّبي على الشّرك زمنا طويلا ، منهم عقيل أخوه وأحب أخوته الى أبيه . فحارب المسلمين فى بدر ولم يسلم وقد وقع فى أسر النّبي وصحبه .. بل اقتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين ..

على ان الألفة بين ابني العم الكريمين قد أوشتك أن تكون عائقا لاسلام على في طفولته الباكّة .. لأن النّبي عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون برّه بعمه وبابن عمه سبيلا الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ولو فى سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقا عسيرا أعسر ما فيه انه عائق اختيار يهون معه الاضطراب ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم .. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب وتصرّ ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه وتضره . فاقبل الغلام البر بأبيه وبكافله اقبالا لا تلجلج فيه على الدين الجديد

وملا الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به الى عقائله .. فبحق ما يقال إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى ، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلاما منه ولا أعرق تقاذا فيه

كان المسلم حق المسلم فى عبادته ، وفى علمه وعمله ، وفى قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال: إنه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الا ما يزيده التعليم على الطباع ..

كان عابدا يشتهى العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه .. وكان يرى فى كهولته وكآتما جبهته تفنة بعيد من ادمان السجود

وكان علي* محجة في الاسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية ، فكلما زَيَّنُوا له الهوادة أبقى « أن يُداهن في دينه ويعطي الدنيا في أمره » وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس ..

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كاث الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه ..



وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به الى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : انها درعي ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ .. قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب ! .. فالتفح شريح الى علي* يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ .. فضحك علي* وقال : أصاب شريح . ما لى بينة ! .. فقفى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر اليه ... الا ان النصراني لم يخطط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يديننى الى قاضيه يقضى عليه !.. أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق . فقال : أما إذ أسلمت فهي لك . وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان

وأحسن الاسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا . فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء ..

الا ان المزية التي امتاز بها علي* بين فقهاء الاسلام في عصره انه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ، ولم يقصره على العبادة

وأجراء الأحكام ، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز علي³ بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه لينغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام

ويصح أن يقال أن علياً ، رضي الله عنه ، أبو علم الكلام في الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علي³ رضي الله عنه . وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبي الحسن علي³ بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد، وجعفر بن محمد قرأ على أبيه، وهكذا ينتهي الأمر الى علي³ رضي الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على علي³ رضي الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ .. فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط ..

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف . وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام، اليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك : الخرقه التي هي شعارهم الى اليوم ، وكونهم يسندونها بإسناد متصل اليه عليه السلام .. »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التي تنسب اليه

ويصح أن تحسب أصلاً « للعلم الالهي » أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى علي رضي الله عنه لأنها تجملت بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده .. ولكن شيئاً على هذا النهج لا بد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال ، وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم ..



ولنا أن نقول: إنه كان رضي الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه . فكانت نظراته إلى الخلق والمخلوق نظرة قرآنية يتكرر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات بوصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطيور والأجنة في الأرحام . فهو تلميذ ربه جلّ وعلا في قوله عن الخفاش : « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً . والنهار لها سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تخرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها ، يقع إذا وقعت ، ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقتها حتى تشتد أركانها ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان الباري لكل شيء على غير مثالٍ خلافاً غيره »

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه

في أحكم تعديل ونَصَدَ ألوانه في أحسن تنضيد ، بجناح أشرح قصبه
وذنب أطال سحبه ، اذا درَجَ الى الأثني نشره من طيه ، وسما به مظلا
على رأسه .. وقد ينحصر من رشه ويعرَى من لباسه فيسقط تترى
وينبت رِباعاً ، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق
ثانياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع
لون في غير مكانه » ..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو
من الأنطاء في عصر الامام علي رضي الله عنه . لأنه كان عهداً نبئت
فيه أصول الفرق الاسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين
بالرجعة وتاسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على
شتى المذاهب .. فأقرب شيء الى المعقول أن يكون لإمام العصر كله
قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه
وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال
التي قدمناها وان لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل ..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الامام على سجيته مؤثراً
للاجتهاد ما استطاعه ، معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق
الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن ياتم بعملهم فيما
يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم
يا بني ان أحبَّ ما أنت آخذ به اليّ من وصيتي تقوى الله والاعتصام
على ما فرضه الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه الأولون من آباءك ،
والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما
أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر .. فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون
أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم . لا بتورط الشبهات ،
وعلق الخصومات ، وابتدئ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك ،
والرغبة اليه في توفيقك ، وترك كل شائبة أوجلتك في شبهة أو اسلمتك
إلى ضلالة ، فان أيقنت أن قد صفا قلبك ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان

هيك في ذلك همأً واحداً ، فانظر فيما فُتِرَ لك .. «
وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام عليّ كما
ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه .. فانما هو إسلام
المسلم « المطبوع » الذي يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحي بصيرته
وارتجال مزاجه ، وانما هو لإسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة
والاجتهاد إلى رياضة النفس على سنة النَّسَّاك وتمحيص الفكر على
سنة العلماء ، وانما هو إسلام الرجل الذي أتيح له أن يتلمذ لربه،
ويتربى في حجر نبيه، ويصبح إماماً للمقتدين من بعده ..

عَصْرُ الْإِسْلَامِ

كانت الظاهرة الكبرى في عصر « علي » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حرية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقَت في حروبها ..

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية ، وعصر عمر كان هو العصر الذي تمَّ فيه إنشاؤها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الاسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها ..

أما عصر علي فكان عصراً عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه، أو هو لم يكن عجيباً لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه ، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب، لأنه كان بناء جديداً في سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار

الا أن العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرغبة في بقاءه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتقويضه وتحويله

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ، كان قسم معاوية

ابن أبي سفيان في الشام وما جاورها
والآخر ، وهو قسم النذر من النظام الاجتماعي ، كان قسم علي
ابن أبي طالب في الجزيرة العربية بجيلة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعاني أرضاً أموية في عهد الجاهلية فلجأ إليها
أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبنائه
متجرين أو مهاجرين الى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان
أن يتولى الامارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصديق ،
وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيماً على امارتها
بضع عشرة سنة الى مبايعة علي بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من
فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال مهمل لتأسيس السلطان الأموي الذي
لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ تولاه عاملاً على البقاء فيها
واصطناع الأعوان المؤيدين له في حكمها . فلم يتوان في اسرضاء رجل
ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع
والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه ارضاءه ، وقد وسعت ثروة
الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس الى خصومه
وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه .. ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب ،
وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زمعة ، وعمر بن العاص ،
وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوي الأخطار

أراد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس
له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « ان أخي خير لي في
ديني ، ومعاوية خير لي في دنيائي » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن
علي والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء

قد همه ارضاء السواد والعامه ، كما همه ارضاء الشرفاء وذوي
الأخطار .. « وبلغ من احكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب

خواصه وعوامه ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين ، فتملق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت منى بصفين فارتفع أمرها الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقتة .. فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه . فقال الكوفي : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره وأحسن اليه ، وقال له : « أبلغ عليا اني أقبله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! » ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها (١)

فان كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء وما هي الا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل متنع بالنظام الاجتماعي الجديد ، رانغ في تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال وعلى قدر هذا الدأب الشديد في اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله في اتقاء أسباب التمرد ، والاخلال بالنظام ، كما نسميه في هذه الأيام ..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا باذر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى معه المال أسكته باغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجِد والاخلاص في العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه أو تقيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعيه حتى بعض الزهاد على هذا الترف الذي استفاد بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبي ذر الغفاري بالنكير ، وطلق يطالب الأغنياء بالانفاق في سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثاني

في سبيل الله يَمَكُوا من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم «
فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل الى أبي ذر ألف دينار
يسكنه بها ان كان ممن يسكنهم الغنى عن الأغنياء ، فما طلع النهار حتى
كانت الدنانير في أيدي المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون
اليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذي حمل اليه
الدنانير يقول له : « أتعذ جسد من عذاب معاوية فانه أرسلني الى غيرك
فأخطأت بك . فقال له : يا بني ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك
دينار .. ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجعلها » .. فعلم معاوية أن الرشوة
هنا لا تغني عن القسوة . وكتب الى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة
له بالصبر عليه ، فأناه الاذن بنفي أبي ذر من الشام الى المدينة ، ثم ضاقت
به المدينة أيضا فنفي منها الى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء



وصنع بعد الله بن سبأ — صاحب القول برجة النبي الى الدنيا
ووصاية علي^ع على الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأغياه ،
قلما يش منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه ..

والتفت الى من ساهم أهل الفتنة من طلاب الإصلاح والتبديل
فكتب في أمورهم الى الخليفة يقول : « انه قدم علي أقوام ليست لهم
عقول ولا أديان . أضجرهم العدل . لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون
بحجة . انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم
فأضجهم ، وليمسوا بالذين يكون أحدا الا مع غيرهم .. »
ثم أخرجهم من دمشق الى غيرها مستريحا منهم بالنفي والاقصاء ،
كاننا دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح

وهكذا تعاقبت السنوات وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب
الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغير ، حتى
تحيزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأتى في مثل ذلك العهد
من دواعي السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر

الفتنة والعصيان ..

أما على فقد شاعت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية إنما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار »

وكانت قبائل البادية تنفس على قرش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون اليهم نظرتهم الى القوي المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهي حالة كان أحجى بالولاء أن يخفوها ويتلطفوا في اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل ، ولكنهم على قبيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة : « انما السواد بستان لقرش ! » ..

وظهر هذا السخط من أثرة قرش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين !.. انتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل .. » الى أن قال يشير الى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في أمارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك : فرضينا وسلمنا . فلما توفي جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا . فما الذي تقمتم عليه فنقاتله ؟ » ..

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغليبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافئين بهذا الغيظ كانوا يتوبون الى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون اليه فيحسن الاصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حتمه عشيرته وصحبه ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حائقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف . ولقد يكون معظم المتأمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين . فلما طوب على بالاعتصام منهم لمقتل عثمان قال : «..كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ » وقالت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : « أيها الناس !.. ان الفوضى من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس.. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم.. »

وكان مع علي* جبهة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشرعة ، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون في الحواضر والبادى ، ولا يزالون كأنبياء بنى اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، منكبين لكل خلاف ولو يسير في اقامة احكام الدين . لا يرضون عن الدنيا ولا عن رضى بها من طلابها ، ولا يستمعون الى أمر الا أن يكون في رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

كما يعتقدونها . وظالما وقتوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لا يستطيعون
أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجئون القرآن عن قبوله .. فإذا كان
أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون
بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه
واستوجبوه ، لأنهم خرجوا في الأرض للفرق بين الحلال والحرام
 والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسلون في
 جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجهر بالنذير والنهية
 بالتبديل والتغيير ، والاصفاء إلى وحى الضمير قبل دعاء الأمير

واجتمع مع عليّ في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع
 إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يراحمونه عليها ، فمنهم
 من كان يقول لعليّ : نبأيك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل
 بقلّة المشاورة له والمبالاة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح
 يحارب عليا باسم عثمان ، ثمحلا لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار
 الأمور ..

وقد كان أبو بكر وعمر يسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران
 منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع
 ما يشجر بين طلابها . ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والفرق
 بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم نفسه ،
 وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن
 يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه
 أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت
 بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن

عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد
الديباج وحتى يآلم أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذربى (١) كما
يآلم أحدكم اذا نام على حسك السعدان »

روى المسعودى انه « فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ،
فكان لثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وآلف ألف
درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وخين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف
ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين
ألف دينار ، وخلف ألف فرس وآلف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق
ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مرتبط
عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ،
وبلغ الربيع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن
ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفتوس غير ما خلف من الأموال
والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة
والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة
وبناها بالبحر والآخر والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق
ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد
داره بالمدينة وجعلها محصنة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منه
خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم »

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصّة على من الدولة الاسلامية عنصرا من
أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ،
خلافا لأمثالهم فى معسكر معاوية

فالذى يطلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة
القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على

(١) منسوب الى أذربيجان

النخسيس ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع على
فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر
القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور في الثورة بفعل محسوس . لأنهم
عرفوا عليا من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن
يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد
عرفوا مذهبه في حساب الولاية ومذهبه في حساب الخلافة . فلما كان
واليا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا ابل الصدقة وقال لهم :
انما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن
يركبوها في غيبته وهو منصرف الى الحج . وشاعت هذه القصة لأن
أناسا شكوه الى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال :
« لقد علمت انه جيش في سبيل الله »

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علي عليه ، لأنه أباح للعمال والولاء
ما ليس بمباح في رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابي من اخوانه جمع مالا
واستهوته فتنة البذخ والثراء
وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا
حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه
ولم يكن في وسع علي أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو
لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم
يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التي ثارت بعثمان وبايعت عليا بعده
ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه
فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ، ولا دعاة الدين راضون مطيعون ،
ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم الا من هو قلق متوقف
لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار
وكل أولئك كانوا في حصة علي من الدولة الاسلامية ، ولم يكن
لماوية في حصته شاحرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له في موضع كل

واحدة منها دعامة تمكين وتأييد
وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لقي غنى عن علة أخرى من
علل العساد والشقاق تضاف اليها

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصة
على من الدولة الاسلامية .. فقد أضيفت اليها علة أخرى ، بل أضيفت
اليها أكثر العلل التي تبلى بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها في
مواردها على غيرها ..

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو انقال أو تجارة .
أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت في طاعته وجنحت الى
القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسودان من حصة على ، ولكنه لم ينتفع
بمصر كثيرا لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستعد بالسودان كثيرا لتعاقب الفتن
والغارات عليها .. وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل
أمان وطمأنينة ..

وينبغي أن نذكر ان الحيلة في هذا التقسيم قليلة ، وان الحوادث هي
التي اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم
الى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » .. ولا محل في هذه
القاعدة لحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية ، ولم يكن
أحد أشبه من على بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها الى التغيير ..

ان شكا اناس غلبة قرش ، فعلى كان يشكو منها ويظن الظنون
بحقدها عليه وفكرانها لحقه ، ويقول في كتاب من كتبه الى أخيه :
« ... ودع عنك قرشا وتركاضهم في الضلال وتحولهم في الشقاق ،
فان قرشا قد أجمعت على حرب أخيك اجماعها على حرب رسول
الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الاصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب

الحفاظ والقراء والنسك فعلى كان امام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير

وان جاءت من ضيم الفقراء فعلى فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلى ييغض هذا التهافت كما ييغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاك قط الا وعلى شريك له فى شكواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير ؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟..

كان على نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسرا قبل أن يرشحا له بارادة مريد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم نذكر أبدا ان أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وان الآخر كان يعمل والحوادث عدة فى يديه !..

البَيْعَة

بويح لعلي³ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الاسلام ، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة ، بعد ان حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأفجع ما كان في هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه لان المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه .. فاذا امتنع الأعداء لم يتمتع الأصدقاء ، واذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الاولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضي في عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعي ومن جانب الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وان ظهرت عواقبها طارئات وتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امان الخليفة في الشيخوخة ، واستمرار الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع

٤ - مبقرة الامم على

وتقد كتبت الأسفار المطولات في احصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية ، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة الى تأييد مذهب وانكار مذهب في الخلافة والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك ، ولا هو ما يقتضيه كلامنا الآن .. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان ..

الا انا نجترىء هنا بالاشارة الى التذمر الذى أثار الفتنة ، والالام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لاشك فيه انهم تدمروا لأسباب تثيرهم وإن طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب

أهم هذه الأسباب ، انه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة ، وانه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة .. فاستدعاهم اليه بعد استخلافه وأعقد عليهم المنح والأموال وانه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران ، وانه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وانه توسع فى بناء القصور ، وحرّم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب اهانة وإيذاء ..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمترّبون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائما فى أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزبد بالتهم واللجاجة ، وازدادة الأوهام الى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة ، ان الناس تألبوا على

الخليفة مرة .. فأرسل في طلب علي* ليصرفهم عنه ، فلما قدم اليه استأذنه في اعطائهم بعض الرقد العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدأوا الى حين ..

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينة مجتدين وغير مجتدين .. وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « ان هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس .. وانك ان قتله نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشي عليه

وفي مرات أخرى ، كان الخليفة يصنع الى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه يعلمه أو يغير علمه ، ثم يعلن التوبة الى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان واخلافهم في أعمالهم بمن يرضي المسلمين ، ويرضي الله

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا ويحلي لهم فيما تعودوه من الترف والنكابة ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوفود يشكون ولائهم ، فاذا عادوا الى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربا على ملا من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف .. فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسمى اليهم . فاذا توجه الوالى الجديد الى مكانه ، اذا في الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يغد اليه من حاملي الشكوى وحاملي كتاب الولاية ، ويقره في مكانه !

حدث هذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل في تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمناقسيه على الخلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم — عنصر السوء في هذه المأساة

كلها - وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، اذ كان أيسر شيء على مروان لو كان برئاً من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفي كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، واحضاح لحجة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون .. لا هم في حرب ، ولا هم في سلام .. وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفاً ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استحقاقاً واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله .. وتوسط على³ بين الخليفة والثوار ، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة على³ ... ومنهم من يسئ الظن ، ويرى ان الخليفة انما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار ..

واقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى .. وتفاقت الفتنة ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان .. لا يقتنعون في هذه الكرة الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة وجاء في رواية « شداد بن أوس » ان علياً رضي الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه على³ .. وقال بعد تمهيد وجيز : « .. لا أرى القوم الا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : « أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً ، وأقر أن لى عليه حقاً ، ان يهريق في

سببى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه في « فأعاد على القول ، فأعاد عليه هذا الجواب .. ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا الحسن .. تقدم فصل بالناس » فقال : « لا أصلى بكم والامام محصور ، ولكنى أصلى وحدى » ثم صلتى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر في الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء .. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيموا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

الا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاوله فتسوروا الدار وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لجز عليهم أن يسفكوه

وللافاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا القتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فأما نحن في صدد الموقف الذى وقفه علي من هذه الجريمة ، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريره وجهه .. وأما يعيننا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة .. أكان في مقدوره عمل صالح يعمله لاقاذا عثمان من هذا المصير ..؟

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنترجع في جوابه الى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين .. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذى لا رى فيه

ليس علينا هذا ، لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى — ولو بعض الغنى — عن الاسهاب في السؤال والجواب ..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الرب ، أن علياً رضي الله عنه لم يكن

أقدر على اجتتاب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء
عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه

فقد كان معاوية والياً عزيزاً ، له جند يرسله الى الخليفة فيحميه في
الشدة اللازمة وإن أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعلبي
ولا لأحد من خلائه ، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان الى الرضا
بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل الى مكة ، وهي آمن له من المدينة ،
أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد
الثوار في العصيان ..

أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة
المحفوفة بالمصاعب من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجراح ، وكان عليه أن يرفع العقبات
والحواجز من طريق الفرس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق

كان فاقداً لسياسة عثمان وبطائه التي حجته عن قلوب رعاياه ..
ناصرها للخليفة باقصاء تلك البطانة ، وتبديل السياسة التي تزينها له
وتغريه باتباعها وصم الأذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها
وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك
البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الإصلاح ، وكان
الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار
ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة
التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من
خطواته ، انه لم يكن بموضع الخطوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب
الاصغاء الى الرأي والعمل بالمشورة . وانما كان مروان بن الحكم موضع
الخطوة الأولى بين المقرين اليه .. لا ينجو من إحدى جناياته التي كان

يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع في روعه أن علياً وأخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتآليب الثائرين عليه ، وانه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم .. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه ..

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في اصلاح الأمر وقمع الفتنة ، لم يكن عليّ مدعواً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة .. بل كان المدعوون الى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه .. وهم معاوية وعمر بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليّ وجمهرة الصحابة ، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « ان لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا اليّ أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون .. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » ..

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلكم ، وأنا ضامن لك ما قبلي »

رأي رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحداً من أصحاب الولايات في غير مصره ..

وقال عبد الله بن عامر : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلو لك .. فلا تكون همّة أحدهم الا نفسه ... »

رأي رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين ان الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

رأي رجل يشتري الرضا بالرشوة ، ويستبقي ما في يديه منها
وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في
ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن
تعدل .. فان آيت ، فاعتزم أن تعزل .. فان آيت ، فاعتزم عزماً وامض
قدماً » ..

رأي رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقي حتى تفرق
المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير
المؤمنين لانت أعز عليّ من ذلك .. ولكنني قد علمت ان سيبلغ الناس
قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي .. فأقود اليك
خيراً وأدفع عنك شراً ... »

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن
ورائهم مروان بن الحكم يلزمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ،
وفي مقدمتهم عليّ وأخوانه .. ثم تفرّق المؤمنون وقد رد عثمان كل
عامل الى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..
فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصية جد قليلة ، وكان الحول
الذي في يديه أقل من الحيلة

الا انه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ،
معصوب بالتبعين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار
أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطون الخليفة اليه ويمرضون
الخلافة عليه .. فلقبهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكون
جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين في الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم فاهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها
بطانة عثمان في أيديهم .. جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر
مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم الى

تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يلبي لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذي جمعكم في طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » ..

وكانت حيرة عليّ بين التقرب والابعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذي حمل اليه رسالة عثمان بالخروج الى ماله في ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان الا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب — أي الدلو — أقبل وأدبر .. بعث اليّ أن أخرج ، ثم بعث اليّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث اليّ أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آمناً » ..

ثم بلغ السيل الزبى ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب الى عليّ يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأنني فوق قدره .. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه . فان كنت مأكولاً فكن خيراً آكلٍ والا فأذركني ولماً أمزق فعاد عليّ ، وجهد في انقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلي به أطباؤه .. فكلهم يريد تغييراً يأتي من قبل الغيب أو يأتي من قبل الآخرين ، ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه ..

وعدّ الخليفة وعدّه الأخير .. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال ... وأحاطت به بطائنه كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهات أن

ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعده
وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها
العقول .. فأشارت عليه امرأته السيدة فائلة باسترضاء علي* والاعراض
عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطاقته من اقناعه بضعف هذا
الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله
لاقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها » ..
وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم الا بالزجر
والاصرار .. كما قال لهم يوما : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم
لنهب . شأته الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا .. ارجعوا الى
منازلكم ، فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا »
اذن بطلت الروية ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدري كيف تبدأ ،
ولا يؤتى لأحد اذا هي بدأت أن يقف دون منتهائها

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن علي* وابن الزبير
ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء
الصحابة ..

واجتلدوا فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « أتم في حل* من نصرتي »
وفتح الباب ليمنع للجلاد حوله .. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان
أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجن جنون
الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم :
« لم أكن لأقتل رجلا نصرني وأتم تريدون قتلى .. » وعز* على الثوار
أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقترحوا الدار
من الدور التي حولها .. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير
لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت في لحظة غيرها
لا يدري كيف تبدأ هي الأخرى .. فأنا هي باخرة ولحده من رجل واحد
تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين ، ولا أكثر

من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..
وتقل الخبر الى المسجد ، وفيه على جالس فى نحو عشرة من المسلمين ،
فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ
من الرجل » فصاح به : « تبا لكم آخر الدهر .. » وأسرع الى دار
الخليفة المقتول .. فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمدا بن طلحة
وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ،
وأتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا
تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل »

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام
بعد مقتل عثمان ، وأميرها العافى بن حرب ، يلتمسون من يجيهم الى
القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على على وهو يهرب الى الحيطان (١) ،
ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا
يجيهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا
الى سعد بن أبى وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى . فلم يقبل
منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا فى أمرهم . ثم
قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف
الناس فى أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا الى على فآلحوا عليه ، وأخذ
الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس .. وكلهم يقول : لا يصلح لها الا على .
فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر ، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان
أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : « انا لله وانا اليه راجعون » ،
ثم الزبير ، ثم قال الزبير : « انما بايعت عليا واللج على عنقى والسلام .. »
وهذا الخبر على وجازته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة
بالمدينة عند مقتل عثمان .. وربما كان أشدهم طلبا لها طلحة والزبير ،
اللذان أعلننا الحرب على على بعد ذلك .. فقد كانا يمهدان لها فى حياة

(١) البساتين

عثمان ، ويحبسان أن قرشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن عليًا وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تتول الخلافة الى واحد من هذين .. أو الى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزيير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح ..

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قرش ، ولا رأى بنى هاشم .. فلو أن عثمان مات حتف أمه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قرش فتعقد البيعة لخليفة غير على بن أبى طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم .. فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلى ، وابن عباس

ولكنها الثورة الاجتماعية التى تشد رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه .. فان ترددت أياما ، فذاك هو التردد العارض الذى يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأى جازم .. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذى تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزيير ، كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتخرجون فى الدين ، وتجرد له الفقراء المحرومون .. كانا يخوضان فى المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة الناقمين المتزمتين ، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووافق رجائهم .. فما هم بواجديه فى غير على بن أبى طالب ، وقد قال بحق : « ان العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون فى الخلافة مقاتله عن العامة فى اقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعا على رأى العامة فى حكومة عثمان وبطافته ، وان أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى النزق وسفك الدماء ..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد

والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة على رضى الله عنه .. فاذا هى فهمت على وجهها ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر .. واذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانباً ، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، والموازن كلها مختلة منقوصة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ .. ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه ، وانما هو حكم الموقف الذى لا يحيد عنه . وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون الى ورود هذا المورد .. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافاً بغير تفكير ..

فلم تكن المسألة خلافاً بين على ومعاوية على شيء واحد ، ينحسم فيه النزاع باتتصار هذا أو ذاك ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين : أحدهما يتعمد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجبت ويميل فيها الى البقاء والاستقرار ..

أو هى كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في على بن أبى طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبى سفيان وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على .. فيحكم في مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان على ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون اذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية ؟.. أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والأجناد والأعوان ؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى في سياستها على ستة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ والاسراف لبقيت

المشكلة حيث كانت ، ولم تكن هزيمة معاوية الا ريشا يتجرد للدولة
منازع آخر يطاول الغلبة من حيث فشل ..
ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى في سياستها على
سنة الحفاظ والقراء لما أرضاهم ، ولا انقاد له أحد من أشياعه ..
فالحسم حق الحسم هنا ، إنما هو تغليب مبادئ الملك أو مبادئ الخلافة
ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد
له جهد الطاقة ..

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسا متشابكا في عهد عثمان :
كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية ونصف
امارة دنيوية ..
فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق
صريح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن
يلغى الخلاف مداه .. ولن يزال قائما حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين
وحكم من الحكمين ، وليس لعلى أو معاوية على التخصيص
هذه هي العلة الكبرى التي تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة ..

وخلقي بكل علة أخرى أن تكون تعلقة موضوعة يستتر صاحبها غير
ما يظن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه ..

خذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علي³ ليطلبوه
بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي³ عنه . وقد
كان عثمان كثيرا ما يقول : « ويلي من طلحة .. أعطيته كذا وكذا ذهباً
وهو يروم دمي .. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » ..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه
يوم مقتله يرمى الدار ، ويقود بعض التأثيرين الى الدور المجاورة ليهبطوا
منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفتر الى السند الوثيق ، ولكنه ينم

على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول
وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام عليّ في دم
عثمان ، وعلل اتهامه لعليّ بتقصيره في القود من الثائرين .. وهم آلوف
يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من
هؤلاء الألوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار
الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح
القتال ؟ انه اتبع عليّاً فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد ،
وقد ذكروه به وألحفوا في تذكيرهم . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار
المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهي تبكي : « وا أبتاه »
فلم تزد هذه الصيحة المثيرة الا اصراراً على الاغضاء والاعفاء . وقال
لها يعزبها : « يا ابنة أخى .. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ،
وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل
إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره .. فان تكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا
ندري أعلينا تكون أم لنا ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيراً من
أن تكونى امرأة من عرض المسلمين .. »

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم
الهيّن .. ولكان عذر علي في بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..
أو خذ لذلك مثلاً علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين
لعثمان بالاعتزال ، بل كان عثمان يخطب ليسترضى الناس ، وعمرو
يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فانك قد ركبت
أموراً وركبناها معك .. فتب الى الله تب .. » ثم ترك عثمان في المدينة
بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله انى
كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان »

فكل علة للثورة على خلافة علي ، فهي تعمل موضوع ينخدع به قائله
أو يخدع به غيره .. الا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها

وخافها وصريحها ومكذوبها . وهى الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وان كان فى ظاهره فصلا بين رجلين ..

فلما بويغ بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايذانا باقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير ، أو كانت ايذانا باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها .. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذى تهيأت له عناصر النظام الاجتماعى الجديد فأما انتهاء الملك فى بدايته ، فقد كان بعيدا — بل كان عسيرا جدا فى تلك الآونة — كما يعسر انطفاء النار وهى تهب بالاشتعال ..

وأما انتهاء الخلافة فهو الذى كان..، وهو الذى كان منظورا أنه يكون ، ولن يكون غيره بمنظور .. فمن الفضول لوم على شئ من الأشياء التى أقضت الى هذه الخاتمة ، وهى محتومة ليس عنها محيد .. اذ لم يكن طبيعيا أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد ، ثوب بعده الطبائع الى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى وقد يتفق كثيرا أن يغمرها جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوتيهوي فى إبان النضال والحمية الدينية ، فتنسى المطامع وتسهب عن الحزازات وتستعذب الألم والغناء إلى مدى الطاقة الانسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين ، وتفتر عن النهوض من قمة الى قمة . فتركن آخر الأمر الى الأرض السواء حيث لا حافز ولا مستنهض الاجارة الطبيعة فى مجاريها التى لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هي حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعاً عليها بعد ضلالة عمياء ، ويردعها بعد جماع مريد ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقاً بغير عنان ..

وقد نظر النبى عليه السلام بعين الغيب الى هذا المصير فقال: « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » .. وأنبأ باقسام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأما كان ينظر الى ذلك بعينه صلوات الله عليه

واتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العاقبة ، أو أنها كانت كفيفة باجتناّب المآزق التي ساقته الحوادث اليها فمن اللحظة الأولى ، أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها ..

فزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة ، وتمرغوا بالدينا ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سحق السواد وسخط الفقهاء المتخرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين ..

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقرين وذوى الرحم ، فصرقتها عن وجوها التي جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين انيها على شرعة الانصاف والمساواة ورجع الى خطة أبى بكر وعمر في تجنيد الصحابة الطامحين الى الامارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وابعادا لهم من دسائس الشيع والعصبيات .. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : « بل تبقيان معي لأنس بكما » وسأل ابن عباس : « ماترى ؟ » فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال على : « ويحك .. ان العراقيين بهما الرجال والأموال .. ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلان السفينة بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى »

نعم ، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه .. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المتنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم في تأييده . وكانت تخالف

غفيدة التي يدين بها نفسه وأقرب الناس إليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه .. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشيء ، وان كان خليفة وملكا فهي خطه عثمان ألنى لم تسقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له في ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد

وعلم إن قرشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة .. لأن قرشا كانوا هاشمين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعا في رفته ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة » .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يتضمن لهم ولاء ..

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه .. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان ، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .. وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ..

فحشدوا جموعهم الى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب في خلافة طلحة .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائما بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس .. أئشدك الله فانك قد أعطيت لسانا ازعيلاً - أى ماضيا - أن تخذل عن هذا الرجل - تعنى عثمان - وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد

جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن
معايير .. فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضى الله عنه « فأجابها
ابن عباس : « يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أى
على فقالت : « أيها عنك .. انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك »

فلما بويغ على في المدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على
الحيدة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه
السلام في مسألة الافك التى قيل انه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت الى
البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سُميت
بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها .. فانتصر على ،
وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه فى المعركة ، وحسم القتال
بالصلح بين الفريقين فى الحجاز والعراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتذمر بالمخاوف
التى يوشك أن يلقاها على فى حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة
والزبير .. وأقواهم معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة فى جيش من المتمردين
والمتمردين .. فانهم يستحمسون فى عقيدتهم ، وهى فضيلة من فضائل
الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد
والنمادى فى اللدد واعجال قائدهم عن انعام الروية وانتظار الفرص
المواتية ..

فقد كان على يميل - كدأبه - الى مفاتحة الخارجين عليه فى المهادنة
أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية - أتباع عبد الله بن سبأ - وهم
أخلص الناس له وأغبرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولدهم فى
عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط
فى الصلح دون الغلبة التى لا هوادة فيها .. فدهموا القوم وأوقدوا
جذوة الحرب ، قبل أن يفرغ على من حديث المهادنة والتقريب بينه
وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أعثرته بها حساسة المتمردين والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتعاظم عليه حتى منى بالعثرة التي لا تقال ..

وكان ذلك في وقعة صفين ..

فانه نظر بعد غلبته في العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة الا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه الى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالافتناع .. فطالت المراسلة منه الى معاوية ، ومن معاوية اليه ، وفي مثل واحد منها ، ما يغنى عن كثير ..

كتب الى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة.. « سلام عليك .. أما بعد ، فان بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بوعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأقصار ، فاذا اجتمعوا على رجل ومثوه اماما كان ذلك لله رضى ، وإن خرج عن أمرهم ردوه الى ما خرج عنه ، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وساءت مصيرا . وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الأمور الى قبلك العافية ، وقد أكثر في قسلة عثمان ، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون .. ثم حاكمت القوم الى حملتك واياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها - يعنى الخلافة - فهي خدعة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قرش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء (١) الذين لا تحمل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت اليك والى من قبلك جرير بن

(١) أطلق معاوية وأبيه من الأسر يوم فتح مكة

عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة .. فبايعه ، ولا قوة الا بالله »
فرد عليه معاوية بما يلي :

« سلام عليك .. أما بعد ، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت
بريء من دم عثمان ، لكنت كآبى بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت
بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . وقد
أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان .. فان فعلت كانت
شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس
والحق فيهم ، فلما فارقه كان الحكماء على الناس أهل الشام ، ولعمري
ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، ان كانا بايعاك
فلم أبايكما أنا . فأما فضلك في الاسلام وقربتك من رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » ..

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف
واحدًا بعد واحد .. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح ،
لا ينتهى الخلاف باغلاقه

فتسليم قتلة عثمان لا يكفى ، لأن عليًا نفسه متهم بالاغراء والتخذيل ،
وبراءة علي من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك الى الشورى
والنظر فى البيعة من جديد ..

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم الى
أهل الشام ، وهم الحكماء على الناس .. لأنهم يحكمون لمعاوية
ولا يحكمون لغيره ..

ومن ثم ، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند
ما يقال باللسان غير ما يجول فى الصدور
وزحف على من الكوفة الى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء ..
فتحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال ..
وبدأت العشرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو لقتال ،

فلا يتخفى فريق من أنصاره للحرب حتى يشبه فريق آخر يحرمها ولا يقول
بوجودها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فرقة .. وتصارولوا في وقعات شتى
غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان في
وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحقت الهزيمة بجيش معاوية
وقيل انه هم بالفرار .. واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش
الشام ، واذا بالعرصة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح .. فان
عليًا نظر حوله ، فاذا بجيشه يوشك أن يقتل فيما بينه نزاعا على القتال
أو القاء السلاح ، وان معاوية لقي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على
كفاحه .. فله منهم سيوف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشاءوا ،
وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيهات !

ولو كانت آفة الطاعة في جيش عليّ ، مقصورة على اجتهاد القراء
والحفاظ ، وتعجل الغلاة والمتمردين .. لكان في ذلك وحده ما يكفي
لإفساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله .. اذ
لا يستغنى القائد في ميدان الحرب ، ولا في ميدان السياسة ، عن الكتمان
والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ والمناسبات .. فاذا كان
في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب
الفتاوى يفترون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست
له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيبا بعد ذلك ، أن ينهزم في ميدان
القتال شر هزيمة يتلبى بها مقاتل .. بل العجيب أن يتماسك فترة من
الزمن — وان قصرت — أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره الى
قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشينة مطاعة ..

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها في اجتهد الحفاظ وتعجل الغلاة ..
بل كان في الجيش أناس يخونون عهدهم ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم
أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره .. فان لم يكونوا كذلك ،
فالأمر الذي لا شك فيه انهم كانوا يعملون وهم عامدون — وغير

عامدين - شر ما يعمله الخائن الحيث الذي يتحين القرض للعناد والشقاق ، وافشاء الخلل والخذلان في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك ، انه لم يكن قادرا على زجرهم والتكيل بهم .. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يجرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بيئة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه ..

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبی عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوجوه .. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حصر في حصنه أياما ، ويئس من الغلبة فاستسلم .. على أن يصفى دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبى بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية ، كان هو من حزب على يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف على رضى الله عنه الى صفين ، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء عليا يقول : « يا أمير المؤمنين ! أئمننا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ » ولتى الزحف اليه .. فوالله لا أرجع أو أموت »

ولكنه عاد الى المسألة ، بعد أن وضع النصر في ليلة الهرير ، فخطب في قومه من كندة قائلا :

« ... قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا ان توافقنا غدا انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات .. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذراري

غدا اذا فئنا » ..

ثم ذهب الى على³ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : « ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يحييوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن . فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل » .. ولقى معاوية فسأله : « يا معاوية .. لأى شئ رفعت هذه المصاحف ؟ »

قال : « لارجع نحن وأتم الى أمر الله عز وجل فى كتابه .. تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يمثلا بما فى كتاب الله لا يعدوا به .. ثم تتبع ما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى على³ ينادى بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن على³ ، وعلى³ لا يرضاه ..

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترأوا على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيئ منذرين متوعدين :

« يا على ! أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم أو تفعل كما فعلنا باين عفان . انه عرض علينا أن نعطى بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه .. والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعي من ساحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه ..

فقبل التحكيم وهو كاره ..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فانا رضىنا بأبى موسى الأشعري »

قال على : « انه ليس لى بثقة .. قد فارقتى وخذل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنت به بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليّه ذلك » قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر .. »

قال : « فاني أجعل الأشر »
قال الأشرث — وهو ينفس على الأشر مكاتته وبلاءه من قبل — :
« وهل سعر الأرض غير الأشر ؟ .. أو قال : وهل نحن الا في حكم
الأشر ! » ..

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أيتيم
الا أبنا موسى ؟ »
قالوا : « نعم ! »
قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! »

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش على ، لم يدع من وسعه
شيئا لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم
الذي يختاره نصيرا له مؤمنا بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث
عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع في الملك بعد فشل على أم
النقمة على الأشر النخعي في مكاتته وبلائه ، أم التواطؤ بينه وبين
معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة .. فانما النية الخبيثة ظاهرة
وان استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما
استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه
قال على يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والعثرات :
« لو أحبنى جبل لتهاقت »

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة
أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطعم فيكم الأعداء ..
ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل
دفاع ذي الدين المطول .. أي دار بعد داركم تمنعون ؟ .. ومع أي امام
بعدي تقاتلون ؟ .. المروء والله من غررتوبه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله
بالسهم الأخبب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق فاصل (١) . أصبحت

(١) الانوق هو السهم المكسور في موضع الوتر ، والناسل العارى من النمل

واقه لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ،
ما بالكم ؟.. ما دواؤكم ؟.. ما طبُّكم ؟.. القوم رجال أمثالكم ، أقولا
بغير علم ؟.. وغفلة من غير ورع ؟.. وطمعا في غير حق ؟.. »

وهي صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا مخرج له منها
في سياسة أصحابه . فانه لم يفرغ من التحكيم الذي أذعن له وهو
كاره ، حتى فوجيء بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل
ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين ،
وهو عندهم كفر بواح ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ،
وكانوا يجرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك !

ثم اجتمع الحكماء بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون
وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا
أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فان أبا موسى لم يكتف قط أن
السلامة في اجتناب الفريقين والعودة عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه
بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي الى عمرو
ابن العاص في اقرار هذا الخلع أو الاحتياي فيه بالحيلة التي ترضيه

الا ان الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن
يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أتابه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع
الفتنة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكماء علم انها الجولة الأخيرة
في الصراع .. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سnette البهانة :
من أمثاله ، اذ يتنسمون الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بمحبها
قبل أوانها .. فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معاوية
وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما
وراء هذا الإبطاء المريب .. فقال له وهو يرى اشتغال باله : « قد أتيتك
بخبر الرجلين .. »

قال معاوية : وما خبرهما ؟ ..

قال المغيرة : « انى خلوت بأبى موسى لأبلى ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟.. فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟.. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا » ..

ثم عقب المغيرة قائلا : « أنا أحسب أبا موسى خالما صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه .. »

وقد أحسن المغيرة حزره نقل الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ، فانهما ما اجتماعا هنية حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو !.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ » قال : « وما هو ؟ .. »

قال : « نولى عبد الله بن عمر ، فانه لم يدخل فى نفسه شئ من هذه الحروب .. »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا »

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء ، وطفقا يبدآن منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر فى خلد الأشعرى ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا الى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعنها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلق عليًا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، واني قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا »

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « .. ان هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أظلم صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فانه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، انا مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. » فابتسم عمرو ، وهو يقول : « انا مثلك كمثل الحمار يحتل أسفارا.. » كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضيين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بها قضياه ..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة

وبان ان اجتماع الحكمين لم يفض الى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف الى ما كان عليه ..

الا انه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم

فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم « .. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كهر اخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى يأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فآثر أن يلقاهم مناقشا قبل أن يلقاهم مقاتلا ، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويحييه ويتوب ان لزمته الحجة ويتوبوا ان لزمته . فأخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكواء

قال على : « ما الذى تقمت على بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ » ..
قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم »
قال على : « يا ابن الكواء ويحك .. أنا أهدي أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم »
قال على : « فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أكان الله يشك انهم هم الكاذبون ..

قال : « ان ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أخرى أن نشك فيك »
قال : « وان الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما اتبعه » ..

قال ابن الكواء : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق فى جميع قولك غير انك كهرت حين حكمت الحكمين »
قال على : « ويحك يا ابن الكواء .. انى انما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا » ..

قال ابن الكواء : « فان أبا موسى كان كافرا »
قال على : « متى كهر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ »
قال ابن الكواء : « بل حين حكم »
قال على : « أفلا ترى انى بعثته مسلما فكفر فى قولك بعد أن بعثته .. أرايت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله (١) فدعاهم الى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟ »

(١) وقد حدث هذا فى عهد النبى عليه السلام اذ اوقد نهارا الرجال ليهتدى قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرا بدينه

قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان على ان ضل أبو موسى ؟ أفيجل لكم بضلالة
أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواقبكم فتعرضوا بها الناس ؟ »
فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بئذ على في مجال نقاش ، فكفثوه
عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق على في حجته وقصده ، لولا انهم قوم
قهرتهم لجاجة العناد كما قهر أمثالهم من المتهمين الذين يجدون في
المضى مع العناد لذة يسترثونها من الحق والمعرفة .. فمردوا على
الشقاق ، وأصروا على تكفير على وأصحابه ، وأن يعاملوهم في الحرب
والسلم معاملة الكفار ..

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع في الساحة
راية ضم اليها ألقى رجل ونادى : « من التجأ الى هذه الراية فهو آمن »
ثم قال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح
الخوارج صيحتهم : « لا حكم الا لله وان كره المشركون » وهجموا
هجمة رجل واحد .. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من قهذ صبره ووغر
صدره . فما هي الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقي منهم نحو
أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ، فأمر بهم على فحملوا
الى عشائهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج
وأراد المسير الى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له في كل فرصة
سافحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين ..
تعدت نبأنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا الى
مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من
هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا »

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ،

وأيقن على أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا علياً ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من عليّ ولم يطلبوها منه ، واستمر هو في اتقاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سامة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي عليّ في أرباض الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شراً من أقرب المقرين اليه ، وانهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعافية الشام ، ويكف السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

وبقيت في كثانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل اليك وأنت تتبعها ، أنها تجمعت منذ الأبد ليوء على بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوقيقات الموقف كله .. فشاعت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من رفاقهم وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وآلقوا وزر هذه الذماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة في رأيهم — وهم : علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم علي بن أبي طالب »
وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان ؟ »
وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »
وان ضغينة الثأر لحافز أي حافز ..

وان تهوس العقيدة لمثير أى مشير ..
وكان للمتأمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يعنى عن
مزيد من التحريض على القتل والانتقام ..

ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم
بحافز ثالث لعله يعفى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز
من الغرام الظامى لا يرويه الا دم ذلك الشهيد الكريم
فان المرء قد ينيم نائمة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة ..
ولكنه اذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو
مأسور زمامه فى يدي غيره ، وليس فى يديه

وكان ابن ملجم يجب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض
أقربائها فى معركة الحوارج . وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة
القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على
ذوئها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجها الا أن يشفى لوعتها .
قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل
على بن أبى طالب »

قال : « أما قتل على ؟ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدنى .. »
قالت : « بل ألتص غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسى وبهناك
العيش معى ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها »
وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه فى
ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من
بيته ، وأمر خاتمة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس . فضربه
عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله
خاتمة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة

فوقعت الضربة على اليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها الا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : « في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني ، وامر بالرجل فقتل لحينه » ..

وأما على ، فضربه ابن ملجم في جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : « يا بني عبد المطلب .. لا ألقىنكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. الا لا يقتلن أحد الا قاتلى .. » « أنظر يا حسن ! ان أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة .. ولا تمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اباكم والمثلة ولو انها بالكلب المقور



وهذه خاتمة فاجعة ، تنظر في كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعثها على أحد بعينه فمهما يقل القائلون ان علياً انما أصيب لأنه كان لا يتقى أحداً ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق في عشرات الحظ بينه وبين زميله اللذين سيقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجاً منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروساً ، ولكنه نجا لأنه لم ينج في تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذي خرج في مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروساً ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة فهي المصادفة السيئة مهما تلتبس لها علة من علل التاريخ ، ترجع بنا في آخر الأمر الى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل وشئ آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها .. وذلك هو النسيج الانساني النابض الذي يتخلل حياة على في لحمتها

وسداها ، وفي تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس فى سيرة الامام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية فى شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناية الولاء . فاذا اتبعت السيرة بالخطمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التى تسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقرب الخيال تفقده فى هذه الخطمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدنا ؟ يأس الكريم المغلوب وجراحة المحتال الغالب ، وغرام المنتهوس المجنون ، وأريحية القليل الموصى بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيف العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار والبهمة الدائمة فى خاطرة حياة تسع ألف حياة ..



وهذه مزية على^٢ بين خلفاء الاسلام قاطبة .. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادقات فى الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها فى كل جيل .. تلك حياة حى .. وذلك مصرع شهيد ..

سِيَّاسَتُهُ

تسرى في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسئلة ، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها ، وهى فى الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلت بالأسنة فمز عليها بعد صقلها أن تردا الى الهجر والاهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لمت فشوطها فى اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان عليا بن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هذا الرأى فى عصر على* بين أصحابه ، كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به انه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هذه المخالفة فى معظم مساعيه ، فكان من الطبيعى أن يقال انه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة فى الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسنرى بعد البحث فى آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى الى الصواب ..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، فى عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : آكان فى وسع على* أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هب استطاع أن يصنع غير

ما صنع فما هي العاقبة ؟ .. وهل من المحقق انه كان يفضى بصنيعه الى عاقبة أسلم..من العاقبة التي صار اليها ؟ ..

لم نعرف أحدا من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب ولخطأ في رأيه ورأى مخالفه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة .. والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الراى الذى سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وضع فى موضع العمل والانتجاز وخرج من حيز النصيح والمشورة وهذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها قسدة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطئ ، ولم ينظروا اليها نظرة الريان فى غمرة العواصف والأمواج ..

فألتخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية ، وهى :

- ١ - عزل معاوية
 - ٢ - معاملة طلحة والزبير
 - ٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
 - ٤ - تسليم قتلة عثمان
 - ٥ - قبول التحكيم
 - ٦ - قبول الخلافة
- وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين .. فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقد أقرب الى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه ..
- قل فى مسألة معاوية ان عليا رضى الله عنه خالف فيها رأى المخيرة وابن عباس وزيد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعا من المشهورين بالحنكة

وحسن التدبير ..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الراى اليوم تحرز به ما فى غد ، وان الضياع اليوم تضيع به ما فى غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فأبى وقال : « لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الدنية فى أمرى »

قال المغيرة : « فان كنت أبيت على فائز من شئت واطرك معاوية ، فان فى معاوية جراءة ، وهو فى أهل الشام يستمع له ولك حجة فى اثباته .. اذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال على : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : « انه نصحك » ..

قال على : « ولم نصحنى ؟ »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى ثبتهم لا يبالوا بن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق ..

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمى يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الامام : « تيسر »

قال زياد : « لآى شئ ؟ »

قال : « تنزو الشام »

فقال زياد : « الاناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنس

فتمثل على :
متى تجمع القلب الذكى وصارما وانا حيا تجتبيك المظالم «
فخرج زياد الى الناس وهم يسألونه : « ما وراءك ؟ » فأجابهم :
« هو السيف يا قوم ! » ..

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل به الامام
وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟ ..
سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا : هل كان الامام مستطيعا أن يقر
معاوية في عمله بالشام ؟ ..
وأن نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو
أنه استطاع ؟ ..

وعندنا ان الامام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية في عمله لسببين :
أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار
أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان في رأى على
وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيرا ما اعتذر عثمان من
اقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب .. فكان على لا يقبل هذا
العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه
« يرقاً » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف »

فاذا أقره وقد ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياءه ؟
ألا يقولون انه طالب حكم لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول
وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل فى وسعه أن يعرض عن آراء
التأثرين الذين يابعوهم بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان
الى حكم جديد ؟ ..

ان هؤلاء التأثرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة
الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. بل هجموا على أهل البصرة

وهم مأمورون بالهدنة والافاة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها ، وان الاستغلال الذى شكوا منه وبخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ ..

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق .. لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل واليا طول حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما ورائه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشترى الأنصار بكل ثمن فى يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة فى حينها .. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صافعا اذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرئته اياه من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الارجاء .. واذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان على مستفيدا من اقراره فى عمله وتعرض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على على بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته ان صواب الامام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال ان الصواب عنده . وعندهم سواء ..

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية
وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأي الذي عمل به الامام معروف ، والآراء التي تخالفه
لا تعدو واحدا من ثلاثة : كلها أعمى عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف
ضماña من رأيه الذي ارتضاه ..

فالرأى الأول أن يوليها العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان
عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأفكره الامام لأن « العراقيين بهما
الرجال والأموال ، ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلان السفينة بالطمع
ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان .. » ثم ينقلبان
عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من اقامة الامام لهما في
الولاية تركية يلزماته بها الحجة ، ويشيران بها أنصاره عليه



والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو
لا ينجح في الواقعة بينهما الا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن
أعطاه لا يضمن انقلابه مع العرة السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب
الى الاثرة كما هرب غيره ، فيذهب الى الشام ليمسوم معاوية ، أو يبقى
في المدينة على ضغينة مستورة ..

على انها لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة الى البصرة ،
فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلى بالناس ، ولولا سعى السيدة
عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ،
وخرج الامام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو
بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة
والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من
المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى
البصرة ليشنا الغارة عليه ..

والواقع ان الامام قد استراب بما نوياه حين سآلاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة ! »

ولكنه لم يجسهما ، لأن جسهما لن يغنيه عن حبس غيرها من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ، وتسلسل الى الشام أناس من فكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له اليانة بوزرهم . وما أكثر المتخرجين في عسكر الامام من حبس الأبرياء بغير برهان ؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتنموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته لهم

وعلى هذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذي خرج من مكة الى البصرة يئأس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العشمانية » في مكة حزبا موفور العدد والمال .. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الامام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها ..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهي غلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيساً بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفواً لمعاوية وعمر بن العاص في الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ، وزعم انه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره

وكان أصحاب عليّ يحرضونه على عزله ، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فان قيسا بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهارين الى مصر من دولة عليّ في الحجاز ..

ولما بايع المصريون عليّا على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون ، وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر » فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاما لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه مترقبا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما متابعتك فانظر فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وتري » ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك اني ماليء عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك انك لذو جد والسلام .. »

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك ، وهم الآن معتزلون والرأي تركهم »

فتعاطف شك الامام وأصحابه ، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدمه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأي الصواب ، وان ترك المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمدا بن أبي بكر والى مصر الجديد ، وجرءوا

عليه من كان يصانعه ويواليه ..

غلطة لاريب فيها ..

وان كان جائزا مع هذا ألا يهزموا قيسا ، لو كان حاربهم ، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله فى الحزم والخبرة ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعد عن اصلاحها فى حينها ، كما تصلح الغلطات التى يساق اليها الساسة .. فانما هى غلطة من تلکم الغلطات التى تضر والحوادث مولية .. وقلما تضر أو تمز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر الى مصر ليعيدها الى طاعته فمات فى الطريق ..

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميئة الباغثة كثيرة ، منها انه مات غيلة وان معاوية أغرى به من دس له السم فى عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقتل نجه ، وروى ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان لله جنودا من العسل » ..

فان صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لاشك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته فى اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحدونها

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية ندم على تقريب قيس من جوار على ، وقال : « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه فى عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له فى سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذى حذر معاوية لم يكن ، والذى حذر على كان .. واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يضر الصواب ..

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين الامام وخصومه ، فاذا هي أقصرها جدلاً من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع ان القود لا يكون الا من ولى الأمر المعترف له باقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعتوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لا استطاع قبل أن تثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه - وهم ولاه الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة الى جميع الأمصار

وقد تحدث الامام مرة في أمر القود من قتلة عثمان ، فاذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا غلصهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شئ مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان هؤلاء القوم مادة ، وان الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق فاهدها عني ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له ، والقصاص من المادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا .. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم

الشرعة حساب انصاف ..

الا أنهم طلبوا ما لايجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ،
وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى
عنها انها قالت لما أخبرت ببيعة علىّ وهى خارجة من مكة : « ليت
هذه انطبقت على هذه ان تمّ الأمر لعليّ » تشير الى السماء والأرض..
ثم عادت الى مكة وهى تقول : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله
لأطلبن بدمه » ..

ف قيل لها : « ولم ؟.. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت .. ولقد
كنت تقولين : اقتلوا « نعشلا » فقد كمر »
ف قالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم
خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكاتها وتقواها ، فقل ما شئت
فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب
والرضا ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم
انهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو انه رفض التحكيم وأصر
على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه ..
ولكنه قبله بعد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال فى عسكرهم
خلافاً بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فرقة للقتال لشكهم فى
وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه

وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه فى
استدعاء الأشر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدا فى ساحة
الحرب على أمل فى النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبى موسى
الأشعري ، على علمه بضعفه وتردده ، يشنون أن أبا موسى كان مفروضا

عليه ، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من ذلك ، وهو ان العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشر أو عبد الله بن عباس .. فان عمرو بن العاص لم يكن ليخلق معاوية ويقر عليًا في الخلافة ، وقصارى ما هنالك ان الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهم بعضهم ان الأشر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح به الى حزب الامام ، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعز عليهم اخفاقهم كما يعز عليه اخفاقه



وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على تقض حكم الحكمين المتفقين ؟.. لقد كان النبی عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة النبى بشهادة الحديث الشريف - قال قائل منهم : انما قتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير المجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيراً مثله اذا تحول ابن العاص ، وأفتى الحكمان بخلق معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذى أذعن له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو ينوى بينه وبين غيره فى عقابه

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المضلات التى واجهها الامام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للإمام وآمن لسربه وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من اثره ، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل ..

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلا كعلی بن أبی طالب ، يترك وادعا فى سربه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الاسلامية فى عصره .. ان تركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والایذاء ، لاعتقادهم انه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو علم منصوب یفیء اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل ان ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ الناس به ورجعتهم اليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البون فى المكافاة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال

ولعلنا تقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. » أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع » ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم اياى قلته ، وليس أمرى وأمركم واحدا .. انى أريدكم لله ، وأنتم تريدونى لأنفسكم » ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على على* ، فيقول : « انه كان

رجلا لا يكتن سرا وكنت كنوما لمرسى ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر الى ذلك ، وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قرىش منه ، فنلت ما شئت .. »
وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخلافة : « انه لا يصلح لهذا الأمر الا رجل له ضربان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر » وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى ، وهى ان هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو انه وضع فى موضع على* ، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها فالبلاء كله انما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر على* يعرف وسر معاوية يكتن .. لأن معاوية يطاع ونيتة فى صدره ، وعليا لا يطاع الا اذا سئل عن نيتة وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ، ولا ينفذ من رويته الا الذى ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازية ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..



ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاه ، لما طمع فى حظ أوفق من حظ على* فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبنى أمية مرودا يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم »
على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون فى تحليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليا بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه ..
فقوام الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز

رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبية فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عاتقا بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التي يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، أن عليًا أشار بالرأى في مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والحصال ، وانه أخذ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية في ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد الذي يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء ..



فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتتكب ، لاتكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلا مجريا .. فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت رداء للناس ومثابة للمسلمين » ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله الى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلقه كالثور عاقصا - أى لاويا - قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة فقل له : « يقول لك ابن خالك عرفتى بالحجاز وأنكرتى بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يث عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأت التردد والابطاء بعد ذلك الا من خلاف جنده ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال انهم أتباع كل ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضربوا واذا تفرقوا تفكوا » .. لانهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنتهم فانتفع بهم الناس ..

فهذا قسط من رأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصدى به
الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دينية مضطربة
في دور تأسيسها وتلقيق أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم في الدولة الدنيوية ، لو تولاها بعد
استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز
في صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية ..
ولكنه قسط من رأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين
يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء ..

ونعود بعد هذا ، فنقول انه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء .. ولم
يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لابد من ملك أو
خلافة ..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ
به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريد ، لأنه عصر ملك
تهيات له الدواعي الاجتماعية ، وتهيا له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة
أمثاله ..

ولم يكن معاوية زاهدا في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو
عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه
فلما جاء عصر الملك ، طلب الملك والمملك يطلبه ..

وقدما قال أبوه للعباس عم النبي ، وقد رأى جيش المسلمين في فتح
مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما »

فهو الملك ، أو هو جاء الدنيا ، الذي تطلع اليه من نشأته الأولى
في بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع في موضعه
وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معا على التوافق والرفاء ..
وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون علي
على رأس فريق الخلافة .

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين في دوام المنفعة ، وبين أصحاب المبادئ والظلمات الراغبين في التبديل والإصلاح وجب أن يكون عليّ رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق
وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة عليّ إلى ما صارت إليه ، كائنا ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائنا ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه



وقد يحسن بالخوارج بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك في صراع عليّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع ، وقد ظهرت في مآزق شتى من أخرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا في تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغطة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع ..
فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الامام في كل خطوة من خطوات النصر ، ويثقل عليه باللجاجة والعنت في مواقف مكرية تضيق بها الصدور ..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت في غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا من الضرر في معسكر الامام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه
ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجح في هذا العنت المكرب حيث لا تنجح العقوبة الشرعية أو الأحاييل السياسية ؟ ..

ماذا لو أن الامام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد الى نفسه ، ثم ولي على الفور من

يقوم مقامه في رئاسة قوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟ .. أكان بعيدا
أن تعمل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتطاول ، ويجتمع
المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟
لم يكن ذلك يبعيد ..
لكنه كذلك لم يكن بالحقق ، ولا بالأمون ..

فهى مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد
يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد
الذى من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا اياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، ان الامام
رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض
أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدايرين . فكانت له ضربة
الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقذاح إما الى الكسب وإما
الى الخسارة .. وإنما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب
بقوته وقوة ليمانه ، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب ..
على انا - وقد سجلنا هذه الملاحظة - نفرض انه رضى الله عنه كان
من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل
بين العهود ..

وتقرض انه عند اليها ، فنفعته في عسكره وطوعت له الجند وأراحته
من شغب الخارجين عليه والمتشعين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله
فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملناه ؟ . وكيف
يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة
كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيسوس الامام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة ؟
أيفرق الأموال على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم
يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد ؟

واذا حرمهم وتألّبوا عليه مع خصمه ، أفهو الغالب اذن يعطال العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

واذا أعطاهم لينذروا بذخ الملك الديوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التى اتبعها الامام هى السياسة التى كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه ، وهى السياسة التى لم يكن له محيد عنها ، ولم يكن له أمل فى النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذى رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنة النبوة والخلافة النبوية



ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الامام ، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شئ لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يلقي عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائص والمفارقات التى نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه ..

أحسن بها الصديق ، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بؤادر الترف الذى استناموا اليه ..

وأحسن بها الفاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضاق ذرعا بالحياة ، وطفق يقول فى سنة وفاته : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط .. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك »

وأحسن بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده ..

وكتب لعلى^٢ بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين
العسكرين . فلا فى مقدوره أن يجمعهما الى عسكر واحد ، ولا فى
مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة
الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره ، وانه لانصاف
قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باء وحده بتلك
النقائص والأعباء ..



وقد تقدمت سياسة على^٣ لقوات الخلافة منه قبل البيعة . كما تقدمت
سياسته لقوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه
تأخر نيفا وعشرين سنة .. فلم يخلف النبى ، ولم يخلف أباً بكر ، ولم
يخلف عمر .. كأنه كان مستطيعاً أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده
وسعى من تديره ، فأعياه السعى والتدير ..

ومقطع الفصل فى هذا أن ترجع الى العوائق التى حالت بينه وبين
الخلافة قبل وصولها اليه ، لنعلم منها العائق الذى كان فى أيدي
الحوادث والعائق الذى كان فى يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فمما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافاً أصابه فى تخطيه بالبيعة الى
غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قرابته من
النبى مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ،
وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعى فى النفس الانسانية كيفما
كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه - مع هذه المزية التى
ترشحه للبيعة - يشبه أن يكون قدحا فى مزاياه الأخرى ، من علم
وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له
ومبالاة على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها
القدح فيها والخط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

الا ان الخلافة الاسلامية ، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضجى فى سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وشعبت الآراء ..
ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان عليّ هي العائق الأول فى سائر الموازين ، ومنها ميزان النبى صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش ، وفى القبائل العربية عامة ، لعل به بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكرهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبه هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبى سفيان صنوا للكعبة فى أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبى سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه أن ثول الخلافة الى عليّ بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن عليّ أن تكون خلافته اختيارا مرضيا كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التى تأبى اثاره العصبية وتصوير الاسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما فى وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة علمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق . فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يظن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من

ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت
النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس
فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ،
لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كل خلافة تنازعها كما
تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية ،
ما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة في
الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين عليّ وبين الخلافة ولا قدرة له
عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قرش خاصة ، وذكره الفاروق حين
قال : « ان قرشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة
والخلافة » ..

ويرى بعض المؤرخين ، ان قرشا كانت تحقد على الامام وتنحيه عن
الخلافة لملءة أخرى تفتن بهذه المصيبة التي أوقعت التنافس بين بيوتها
وبين بني هاشم ، فقد بطش الامام بنفر من جلة البيوت القرشية في
حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن
ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحظلة أخاه ، وجميعهم من
قتلاه في يوم بدر .. عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ
أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الاسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا
يملكون النار منه لقتلهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما
قال ابن أبي الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة
ابن عمه ، من اظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف
من قرش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائمه وفتكاته في

أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله»
وقد علم الامام هذا من قرش ، عندما يس من مودتها وإبتلى
بالصريح والذخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لى ولقرش ؟ .. أما والله
لقد قتلتم كافرين ولأقتلنهم مفتونين .. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر
الحق من خاصرته .. قتل لقرش ، فلتضج ضجيجها »



ولو أن قرشا وادعته فى سرها وجهرها ، ووقت بينه وبين منافسيه
على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أى
عقبة ..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بنحولها ، فتلك هى العقبة التى
لا يذلها الا بعزب أقوى من حزب قرش بعد وفاة النبى صلوات الله
عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قرش فى أرجاء الدولة
الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر
وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصية الذى قدمناه ، فلا نرى شيئا أقرب الى
طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم الى ولاية الخلافة بعد النبى
عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج
العصية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح ..

فليس أقرب الى طبائع الأمور فى بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظار
الى مشيخة الاسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيار
الخليفة من بينها على الستة التى لم تتغير قط فى توارىخ العرب
الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين
ولم يكن الامام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تتول اليها
الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزغامة فى
حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ فى تجاوز الثلاثين بقليل . وكان

أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور عليؑ في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذي قام بين عليؑ وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعني به عائق العصية الهاشمية ..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، في رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بنى هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة ..

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : « ان ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا .. وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم » واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مبعدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له في المشورة سوابق ماثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذي كسبه بهذه المزية خصره بازدياد المطامع الدنيوية وأأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل في لين عثمان وتقدم سنه منهم الى أمل من الآمال في شدة الامام وعسر حصابه ..

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد ..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها ، دخلت في الأمر دخلة البواعث

الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الانسان في زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فظلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل انه أنس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص ميلا موقوتا الى على وانحرفا موقوتا عن عثمان ، فسارع الى المنبر وباع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

ويقضى الحق أن يقال في هذا المقام ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم يتقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت عليا وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويع الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قرش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟
كلا . . .

بل جاءت البيعة في المدينة ، يوم خفت فيها صوت قرش ، وهبطت سمعة حكامها ، ويوم أصبحت البيعة ثورة على قرش ، تنكر عليها الاثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامي قسميه اللذين التبسا وتداخلا حينا حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضي في الملك والدولة الدنيوية ..

العقبات الاسلامية - ٢ - ٨

فأى القسسين ، كان قسم على كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟ .. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبي الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تديره ، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغى أن نرجع الى علة غير سياسة على لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان .. فهو غير مسئول عن نظرة العصية التى نظرت بها قرش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنّه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والاصالة بين ذوى الأسنان والأخطار.. وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى بره واطمئنا الى حفاوته ووده وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدنيوية وأخلق بتمكينه أولا وآخرها بين قرش وقبائل العرب عامة .. فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف ارادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها ولكن الواقع ان هذه السياسة — سياسة المنافع الدنيوية — لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبي ، ولا بعد مقتل عثمان ..

فبعد النبي عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استنفذت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الاسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستريدها ..

فالذي يناضل في سبيل الحكم سلاح هذه المنافع ، انما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحا ماضيا ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلبت في ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهبتها قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكثر لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع ولو توافرت لعلّ مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقلّ تقعا في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه وأغلب الظن ان عليا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أجوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حببته آداب الخلافة الى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت في اليمن - وقد عهدت حكمه قديما - تلك الطائفة السبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والامامية التي ظلت كامنّة في تربتها حتى أخرجت شطاها بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة من

البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد
أنفع له من عصب معاوية أجمعين ..
فأغلب الظن - كما أسلفنا - ان علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه
سياسة الدولة الدنيوية ، ولا يكسب العصب التي ناصبته العداة ،
وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..
وهذا على تقدير المقدرين ان علياً يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ،
وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..
وليست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها علوم ..
وتفضى بنا هذه التقديرات جميعا الى نتيجة واضحة تلخصها في
كلمات وجيزة ، ونعتقد انها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي
كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..
فسياسة علي لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع
سياسة أخرى ..
وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها في
موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه ..
فليست هي علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هي لا
تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعي النجاح من حيث لم
يسلس له قياد ..
ورأينا في سياسته فهما وعلماء ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي
هي الى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء ..
فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..
وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن المساومة
والاسفاف ..
ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موطن ، فحصل
أعباء النقيضين ، وأخفق حيث ينبغي أن يوفق أو حيث يعيه أن ينجح ..
وتلك آية الشهيد ..

حُكُومَتُهُ

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا الخطر في ابان الفتنة الداخلية بين عليّ ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان في وقاءين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتدت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن اليه الناس مؤمنين بدوام ظنه وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحرق بهم من المخاوف ، وربما صح في الفتنة الاسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي انها لن تكون شرا محضا في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فان هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت في روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذي يشق عليهم جهده ، وهم في تلك الحالة من الجهد والاعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والاناة ، وألهم القوم عنه ببعض الأثاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الحادع جانبا من جوانب الخير في الفتنة الاسلامية التي فاضت يومئذ بالشروع

وعلى هذا اتقضت أيام عليؑ ، وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليؑ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث ..

ومن اليسير أن نعرف سياسة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة في التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فإذا طريق عليؑ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هي أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء ..

فالناس في الحقوق سواء ..

لا محابة لقوى ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمد الى القطاعات التي وزعت قبله على المقرين والرؤساء ، فانتزعاها من القابضين عليها وردھا الى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سعة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق »

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال

فمن وصاياه المكررة لولاته : « انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تصمموا أحدا عن حاجته ولا

تجسوه عن طلبته ، ولا تبعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف .
ولا دابة يعتلون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضرين أحدا سوطا لمكان درهم .

ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات : « .. امض اليهم
بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخذج بالتحية
لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلني اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم
حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه الى وليه ؟ .. فان
قال قائل : لا ، فلا تراجع .. وان أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن
تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أوفضة ،
فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا بإذنه ، فان أكثرها له .. فاذا
أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا غنيف به .. ولا تنفرون بهيمة
ولا تهزعا ، ولا تسوعن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيره ،
فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء
حق الله في ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. »

وكان دستورہ في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر
في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى
واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان في صلاحه وصلاحهم
صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم
عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك
في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن جلب
الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا
قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها ، وانما يعوز أهلها
اسراف الولاة على الجيع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .. »

أما دستورہ في الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشر
النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم
محابة واثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والحياة ، وتوخ منهم أهل
التجربة والحياء من أهل الليوات الصالحة والقدم في الاسلام ، فانهم

أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل في المطامع اسرافا ، وأبلغ في عواقب الأمور نظرا .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابتعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية «

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيته منك وأشناهم عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان في الناس عيوباً ، الوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال في وصيته لمحمد بن أبى بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأئمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم وتقادهم ... وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله فى عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناquديه فى عصره أو بعد عصره ، فانما هو آخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

اذ كان مما قيل مثلا ان علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على الميمن ، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على

مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من ايثار الأقرباء بالولايات واقضاء الآخرين عنها .. ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الامام ، ولم يكن للامام معتمد على غيرهم بعد أن حاربه قریش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاة انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يجعل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصارى عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان .. وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضيه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه »

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى دارا بثمانين دينارا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجا في الدين ..

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسبون عليها هذا الحساب ، لما كان في اختصاصه اياهم مستبجح حق ولا مستبجح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة

عنهم ، أو يختصمهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة ؟
فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى الى الناقد بها
أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..
وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من
الأمور على عهد الامام ولم تنقسم في مسألة الولاة أو مسألة الاستقلال وكفى
وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية الى
جانب العصية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..
فالدولة الدنيوية تشد ازرها بالعصية الجنسية ، والخلافة الدينية
تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..
وقد كانت القبيلة من أنصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية
في سبيل الرأي والعقيدة ..
وكان أنصار الامام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من
أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل
العرب على التعميم ..
وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة عليّ أو خلافته ، هو
أقطع الأدلة على الوحدة بين أوائه وأوان الخلافة .. فاذا ذهب هذا
وجب أن يذهب ذاك ، أيا كانت السياسة المتوخاة ، وبالعالم ما بلغ نصيبها
من السداد والصواب ..
ولنا أن نعم هذا الحكم الانساني في كل شأن من شئون الحكومة ،
قضى به عليّ في عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..
فالروح الانساني هو قوام الحكومة الامامية ، كما ينبغي أن يكون ،
وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية .. وهي طاقة لها
ما لها من حدود ..
جاء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه في حملها ، فاستفتى
الامام .. فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان
كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما في بطنها »

واتزع امرأة من أيدي الموكلين باقامة الحد عليها .. وسأله عمر
فقال : « أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن
ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى
حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بنى فلان .. فلعله
أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدري » قال : « وأنا لا أدري »
فترك رجمها للشك في عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدا العطش ، فمرت على راع فاستسقته ..
فأبى أن يسقيها الا أن تمكنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس في
رجمها ، فقال علي : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخل سبيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصاص وتفسير الشريعة ..
الا انه قد حاد عن هذه السنة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء
عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ،
وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل انهم أصروا على
عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو
الاله المعبود .. اذ لا يعذب بالنار الا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة
وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة .. ولكن الاحراق
بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على
الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيح الامام في هذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك
الضلالة ، وهو مظنة الرية في الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن
حيث تظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألتهوه .. ونهى
عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا في الأرض أو
يبدءوا بالعدوان على برىء . وفي هذا الانصاف بين مؤلّيه ومكفره
شفاعه من تلك الصرامة في العقاب

وكان الامام يذكر أبدا في حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليا عليه السلام خارجا من همدان ، فرأى قتين يقتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتا : يا غوثا بالله فخرج يخضر نحوه حتى سمعت خفق نعله : وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلزم رجلا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعث هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطينى مغموزا ولا مقطوعا ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمنى » فقال : « ابدله » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأناه باليعة .. قال : « دونك فاقصص » قال : « انى قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط فى حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان »

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص ويقال الكثير عن مناهج الامام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يعنى فيه هذا الاجمال عن التوسع فى التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل الحجازيين .. وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للامامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعلى ومحيطه به حيث تحول وحيث أقام ..

النبي والإمام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متكئ على قوس عريضة ، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولي لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقي الجد رديء الولادة » .
ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سألت : « أى الناس أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صواما قواما »

وقد روى حديث في هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها »
ولا تناقض بين الحديثين ، اذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل عليّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيّه ، وهى تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث ، وفي أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهنا منه هنا أن تنصر فيه فريقا على فريق ، أو ترجح مذهباً

على مذهب . . اذ ليس فهم الامام موقوفا على تغليب أى الفريقين
وتعزى أى المذهبين ، وفهم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو
كل ما تعنيه ..

فهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث ، فالذى يسعك أن تجزم به
من وراء اختلافهم ، ان عليا كان من أحب الناس الى النبى ، ان لم
يكن أحبهم اليه على الإطلاق ..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء
والأقربين .. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم انسانا ، كان ابن عمه
الذى كمله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج
ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى هم
المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه . وكان نصيره الذى أبلى أحسن
البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه
ناشئ فى سنه ؟ ..

حب النبى لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى
تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء
كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه اياه ..
بل كان يسره ويرضيه أن يحبّه الى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن
يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله عليا فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ،
واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان
المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه
ما عندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم .. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول
بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث
واحدا بعد واحد فى معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه
رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من على ؟ .. ما تريدون

من على؟ .. ما تريدون من على؟ .. على منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى : «أبغض عليًا؟» قال : «نعم!» قال : «لا تبغضه ، فإن له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاه .. لا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حبا »

وبعث رسول الله عليًا الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم ابل الصدقة ليريحوا ابلهم ، فأبى .. فشكوه الى رسول الله بعد رجعتهم . وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : «يا رسول الله .. لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق ..» ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : «ياسعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك على؟» فوالله لقد علمت انه جيش فى سبيل الله

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبا يقول لهم : «أيها الناس .. لا تشكوا عليًا ، فوالله انه لجيش فى ذات الله ..»

ويلوح لنا أن النبى عليه السلام كان يحب عليًا ويحبه الى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحبا .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصية الهاشمية ، فانه عليه السلام قد اتقى هذه العصية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطرا على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا الى الملك والدولة فى بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشرفه حظوظ الدنيا وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشئنة ..

فالتزم فى التمهيد لعلى وسائل ملموحة لا تتمدى التدريب والكفالة الى التقديم والوكالة ، أرسله فى سرية الى فذك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى

ليقرأ على الناس سورة براءة ، وبين لهم حكم الدين في حج المشركين
وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون الى غزوة
تبوك .. ولم يفقه مع هذا كله أن يلحج الجفوة بينه وبين الناس ، وأن
يكله الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه الى ما ارتضوه ،
عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..
هذه فيما نعتقد أصبح علاقة يتخيلها العقل ، وتنبئ عنها الحوادث
بين النبي وابن عمه العظيم ..

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة
المأمولة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان
فهو يحبه ويعمد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه الناس كما
أحبه ، وأن يحين الحين الذي يكلون فيه أمورهم اليه ..
وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..
ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..
وليس بالممكن أن يحبهما له ، وينسى في سبيل هذا الحب حكمته
الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك
ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..
واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان
وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم ان أرادوه
لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شأته
ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..
وانما الممكن والمعقول هو الذي كان ، وهو الحب والايثار، والتمهيد
لأوائه ، حتى يقبله المسلمون ويتهموا له الزمان
أما العلاقة بين علي* وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهي

علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يشوب الى الصبر والتجمل والتقية..
فليس فيما لدينا من الأخبار والملاحم ما يدل على ألفة حميمة بينه
وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة
وبغضاء .. بل ليس فى أخباره جميعا ما يدل على طبيعة تحقد على
الناس ، وإن دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

فمن المعلوم أن عليًا كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه ، وأنه
لم يزل مدفوعا عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام الى الرفيق
الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصار فى أمر الخلافة بالقرابة منه
صلوات الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم
السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا (١) عليهم .. فإن يكن
الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويح بها الصديق ، ثم بويح بها
الفاروق ، ثم بويح بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهد الصديق ،
فباعدت الفرقة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة
هذه القضية ، أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض
فدك وسهم خير ، فذكر لهما الصديق حديث النبى عن ارث الأنبياء ،
ونصه فى روايته : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو
صدقة .. إنما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنها على ليلا ، ولم يؤذن
بها أبابكر .. وقيل أن عليًا تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد
وفاتها . ثم أرسل الى أبى بكر أن اتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه
وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبابكر
انكار لفصيلتك . ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا
نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا »

(١) فلجوا : أى انتصروا عليهم ..

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فترى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الانسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمعة غضب تقلت معها بؤادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائمه..!

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفي ذلك يقول من خطاب الى معاوية : « ذكرت ابطائي عن الخلفاء وحسدى اياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه في حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فانه احتضن ابن أبى بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطيء جدا من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقاما لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البيئة القاطعة عليه . فلما استفتى في هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان ، فأعفاه من جريرة عمله .. لأنه هو الرأى الذى أسسه من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه في التأمر عليه

وانك لن تجد انسانا أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذكره في حومة الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ، ويعود بالخصمين المتناجين الى الصفاء والأخاء ..
فما حارب علي³ عدوا له سابقة مودة به الا أن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصدقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..
ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل ، وهما ملحان في حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسرا لا يحتوى بدرع ولا سلاح ، ونادى :
يا زبير ، اخرج الى .. فخرج اليه شاكا في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم علي³ مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال
فلما تقابل علي³ والزبير اعتنقا ، وعاد علي يسأله : « ويحك يا زبير ما الذي أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »
قال : « قتل الله أولانا بدم عثمان »
وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : « والله ستقاتله وأنت له ظالم »
فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »



ولما وقف علي³ على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : « عزيز علي³ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء » وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..
والمودة عند فارس كعلي³ عهد محفوظ وموثق مذكور ، ان فاتها ان تكون حنان قلب أو ألفة شعور
ويخيل لنا انه لم يرزق قط صداقة الالقاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبه ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود وديدن

الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم لىاءة الى سلاح مفعد أو سلاح مشهور
ومثل على لا يرزق صداقة الالفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التى
تفرد بالمتافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة
فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكى ، موصول النسب بأعرق الارومات..
فان لم يحسد هذا ، فمن يحسد ؟ ..
وان حسد ، فما الذى يقل من غرب حاسديه ؟ .. وما الذى يفىء
بهم الى القصد فى عدائه والتأليب عليه ؟ ..

انهم يستبعدون يومه فى الامارة والسلطان ، واذا استقربوا يومه فى
الامارة والسلطان فلا مطعم لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالقسط
على الأموال والحقوق ، فتصيه اذن منهم نصيب المحسود الذى لا رجاء
له فى هودة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم
يطمعوا فى تقعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه ، وبليته بهم
أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعتمد معهم الى الختل والروغان..
وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التى لا تحميها
حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربى : « ان نسى انه
أسد لم ينسوا أنهم كلاب »
وهكذا قُرِضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها
وبين آلهما وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة ، كانت علاقة الزمالة التى ينوب
فيها الواجب مناب الالفه ..
والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض
غير مكتوم ..

والعلاقة بينه وبين سواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا
ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده اناس فافرين ..
وتلك أيضا آية الشهيد ..

نَقَافِصُ

السنة الخلق أقلام الحق ..
كلمة سائفة ليس أصدق منها إن صدقت ، وهي صدق في كثير من
الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي
ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل إلينا أنها خاطر
عابر يسمع ويستلمح ويشفع له القدم .. فتقبله كرامة له كما تقبل الثمين
والغث أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد
ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس ، ثم نعرض اتفاقا على العلم
والقياس .. فإذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء
العلماء وقضايا الحكماء ، وإذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا
اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذي اختص به عليّ بين جميع
الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ،
بين جميع الأئمة الذين سمووا بهذه السمة من سابقه ولاحقيه ..

ولم وليس هو بفرد في الامامة بجملة معانيها ؟ ..
ألم يكن الصديق اماما كعليّ ؟ .. ألم يكن الفاروق اماما كعليّ ؟ ..
ألم يكن عثمان اماما كعليّ ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت
الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..
بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه في الامامة ..

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترب بها ولا يقترب بشيء غيرها .. فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذيل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو علي بن أبي طالب ، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديعه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

وخاصة أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها علي ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت في صدر الاسلام ، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقة في الاسلام لم يكن علي معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول ..

أما الفرق التي جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الحوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير وهنا تشبك الفروع وتتأشب الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجاً من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تتراعى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول .. فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارئ أوقاته ..
وكانت له في الامامة آية أخرى من هذه الآيات ..
فآية الشهداء أنهم يخسون حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضى الله عنه : « انها اذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ، واذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره »

وكذلك اتفق للامام في صفة الامامة ، كما اتفق له في معظم الصفات ..
فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القليلة لم ينسب اليه ، وقل أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه اياه ، وقل أن توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..
نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها الا عشرات من الأبيات تصح نسبتها اليه ..

ونحلوه علما سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذى يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان
ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق وبعض ما نحلوه يزيد قدره ويرفعه شأنًا ، الا تصح نسبتها اليه ..
وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره وإثبات امامته في عصره ، وبعد عصره

وعندنا انه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان تقدمه للشعراء فقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف

وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل : « من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها .. فان كان ولا بد فالملك الضليل »

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب « المدارس » والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة الا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل الا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة في شعره ، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لملئ في هجاء المشركين فقال : « ليس بذلك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وتنب له من يصره بمثالب القوم ..

وكل شعره الذى رجحت نسبته اليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض تقع فى السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
وفادى ابن هند فى الكلاع وحير وكندة فى لحم وحى جذام
تيمت همدان الذين هم هم اذا ناب دهر جتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصابة فوارس من همدان غير لثام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات :

محمد النبى أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عنى
وجعفر الذى يمى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولدائى منها فأيكم له سهم كسهمى

سبقتمكم الى الاسلام طرا صغيرا ما بلغت ألوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومي
وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبي عليه السلام أن
يأذن له في هجاء من هجاهم ، ولم ينسب اليه شعر .. صح أو لم يصح ،
أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو
يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء ..

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول
الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا اليه .. فمثل على في تقواه وفضله ،
لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق
بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع
الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذي لا خلفة فيه من الشك
عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف
وفتنة الزنج وغارات التار وما اليها ، هي من مدخول الكلام عليه ..
ومما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير
أو طويل ..

ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض
الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من
ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام
الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى
سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغرب اللغة : « ألصق
بروائفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل خندورتك الى قيهلى
حتى لا أتقى نفية الا أودعتها بحماطة جلجلانك »

أى « ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك
الى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها في سواد قلبك »

فان الولع باظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الاسلام ،
ولم يلتفت الناس الى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين .
بفصيح العربية وغيرها على السواء
ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال : « ماتر بعلبنت قط » .
أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و « ما تسبتمكت قط » أى ما أكلت
السك يوم السبت « وما تسرولقمت قط » أى ما لبست السراويل
قائماً .. الى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظاً ومعنى واعتقاداً
من رجل كالامام فى صدر الاسلام

الا انا نسقطها جميعاً ، فلا نسقط بها فضلاً ترجح به موازين
الامام فى حساب الثقافة .. بل نحسبها فضلاً — ان شئنا — ونسقطها .
فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين ..
تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى ، والقضاء الاسلامى ،
والفقه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابة العربية .. مما
يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً لموسوعة المعارف الاسلامية فى جميع
العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها فى
الصدر الأول من الاسلام ..
وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة
الاسلامية ، على تباين العصور ..

ففى كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الالهية
تسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد
وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية
عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة
الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولاسيما الكلام على الأضداد والطبائع
والعدم والحدود والصفات والموصوفات ، ولكن الذى يقرؤه الباحث
ولا يشك فى نسبته الى الامام أو فى جواز نسبته اليه ، قسط واف
لتحقيق رأى القائلين بسبق الامام فى مضمار علم الكلام ، واعتراف

المعترفين له بالاستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملة خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرًا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شرك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلاق مربوبون وعباد داخرون - أى ضارعون - لم يحل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم .. »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشرعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على اخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة ، قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح ..

وفي أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات الموارث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيلة التى كانت تعد في ذلك الزمن ألغازا تكد في حلها العقول ، فيقال ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستائة دينار ، ولم

يُقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة
وابنتين وأما واثى عشر أخا وأنت ؟ .. فكان كما قال

وسئل يوما في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين .
فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعا . وسميت هذه القريضة بالقريضة
المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..
وفي هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلا عن
الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب ..

وإذا قيل في قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن
يقال في علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهما في انشاء هذا العلم من
سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكى اليه شيوع اللحن على
السنة العرب ، فقال له : أكتب ما أملئ عليك ، ثم أملاه أصولا منها :
ان كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ،
والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم
ولا فعل .. وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشئ ليس بظاهر ولا
مضمر .. وانما تفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر ..
يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبى الأسود : انح
هذا النحو يا أبا الأسود .. فعرف العلم باسم النحو من يومها
وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقابلة بين اللغات
الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية ..
ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ،
وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون
الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة
العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تفتش الكوفة وحواضر
المراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين
سبقوا الى تدوين فحومهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية
وليس الامام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال

الخطب على المنابر في الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الانشاء الذي يقتدى به في الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلعين لا صياغة منشئين ، ويقصدون الى أداء ما أرادوه ولا يقصدون الى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الامام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البالغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الى طور التفنن والتجويد .. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .. فديوانه الذي سمي « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة اليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقتناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثانيا الحروف ، يوحى اليك حيثا وعيته أنك تسمع الامام ولا نسمع أحدا غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على اننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا - بل توجب علينا - أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأي كان من الناس في مثل ذلك الزمان ؟ ..

والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التي تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التي تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور

وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد في معسكر الامام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله ..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودى ابن زنجية مولود في بلاد اليمن ، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الاله الذى يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يعنى من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى اسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع ..

وقد كانت عاصمة الایام في الكوفة .. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان

ينظر فى النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج فى طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهذى الى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء ؟ .. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه » ..

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلاً : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتدى به فى بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكاfer ، والكاfer فى النار ! » وقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، ممن يلقاه ، ويستطلع أنباء وآراء وقضاياهم .. فمهما يكن فسط الثقافة العالمية قليلا فى بلاد الاسلام على تلك الأيام .. فقيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام ، وأن يثبت ما أثبتته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام .. على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها — انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها

فحصه الامام من علم النحو — مثلا — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه ..

وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر .. وهى فى ابتدائها أصعب جدا منها فى أطوارها التى لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها .. أما فن الثقافة الذى يقاس بمقياس كل زمن ، فاذا هو عظيم فى جميع

هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا أننا نسجل له في ثقافة الأمم عامة كما نسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور فالكلم الجوامع التي رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل » فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..
فهى من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ، كقوله مثلا : « نفس المرء خطاه الى أجله » .. أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .. أو قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب الفن الأصل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأي بالدول . يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » .. أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للبنى وأجدر باقبال الحظ عليه » .. أو كما قال : « اذا هبت أمرا فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما نخاف منه » .. أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا بصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع » ..

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يظن لها كقولها : « كل معدود منقوض وكل متوقع آت » أو قوله : « اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس اماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره .. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يقط الناس من رحمة الله ولم يؤسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشئ مواضعه » أو قوله : « الصبر صبران : « صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » أو قوله : « من ملك استأثر » أو قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله : « القراية الى المودة أحوج من المودة الى القراية » ..

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكم » فقال : « ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم ؟ .. ان كانت الرعايا قبلئ تشكو حيف رعاتها ، وانئى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأتنى المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة » ورثى محمدا بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية فقال : « ان حزنا عليه قدر سرورهم به ، الا أنهم قصوا بغضا وتقصنا حينا » ..

فكل نط من أعاط كلامه ، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب Muir المؤرخ الانجليزى حين قال : ان عليا وقد أخطأ « موير »

حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعنى أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة ، فإن « موير » أحجى أن يفرق بين عمل الانسان ينصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن عليًا كان من العاملين بما يقولون ومن المتصحين بما ينصح به الناس . أما انه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح فى علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نسب الى قالة من الأوائل غير الامام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذى جمعه الشريف الرضى فى «فنج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقريّة الامام .. فحسبنا أن أسلوب الامام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تهدح فيه كلمة ظاهرة التلقين هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطئ أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة متصل حينا ، وتقطع حينا ، كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الامام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول فى ثقافة الامام على رضى الله عنه ، ما لم تتممه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملته ما يقال فى هذا الصدد ، أن فن الامام المسكرى هو فن

البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقودة
الشجاعة واذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف
يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع
قلبه ويفت في عضده .. ومن حيله المشهورة في توهين عزم عدوه ، انه
أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين
كانوا يلتفون به ويشبتون بشوته ..

وهذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينه وبين
خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

ولم يرد لنا من أبناء الامام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته
العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليلة
ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التى جرى عليها في وقعة صفين
على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم
لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن
معسكركم من قبل الاشراف وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كيما
يكون لكم رداءً ودونكم رداً ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو
اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا
يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم
عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا
جميعاً واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح
كفة — أى محيطة بكم — ولا تذوقوا النوم الا غراراً أو مضمضة ..
ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل ، فان الله جعله سكناً وقدره مقاماً
لا ظلماً » ومنها قوله للولاة : « انى سيرت جنودا هى مارة بكم ان
شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف

الشذى ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة
المضطر لا يجد عنها مذهباً الى شيعه ، فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً
عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. «
وهذه وما هو من قبيلها ، مناهج موروثه أو أدب هو أقرب الى
نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين ، لم تكن
الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات
متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس
المناضل والبطل المفرد في موقف المبارزة أو في غمار الصفوف

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هي ثقافة العلم المفرد والقمة
العالية بين الجماهير في كل مقام ..
وانها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم
والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسمه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد في الدنيا
مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله ..
فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في
الدين والدنيا بحته ونجواه ..

فِي بَيْتِهِ

حلاصة رأى الامام فى المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لا بد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجال وتحمد منه .. « فخير خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن . والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت من كل شئ يعرض لها » ..

والامام صائر الى رأيه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذى ينظر اليها على سئة الحكمة القدعية ، وطريق العابد الذى ينظر اليها على سئة العبادة فى جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب القروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما اتقم قط من امرأة لأنها أساءت اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء المدو بصفين ، حيث يقول :

« لا تهجروا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية . بالهجر — أى الحجر — أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده .. »
وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد ..

ومن ذاك صبية السبي التى استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها
قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه
الى النبی علیه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى
الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه
إذا شيعها : « اعزبوا عن النساء ما استطعتم » ويوصى فى أمثال هذه
المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم
يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به
السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ،
وهو غير الهوى الذى تبعته المرأة بمغريات جنسها

كان جالسا فى أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم
بأبصارهم .. فقال رضى الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح ،
وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه قليلا من
أهله ، فاتها هى امرأة كامرأة »

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام فى المرأة هى خلاصة
الحكمة القلعة كلها فى شأن النساء ..

فمن شر لايد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند
واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بنى
اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام

لأنهم كانوا جميعا يمزجونها بالشهوات التى تثيرها عامدة أو غير
عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التى تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم
منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا فى الأزمنة الحديثة التى
نظرت فى استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت
المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ فى تبرئتها من جنایاتها

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تتخذ آراء الأقدمين فى المرأة دليلا على
نصييهم من الغبطة أو السكينة فى حياتهم البيتية .. لأتنا خلقاء أن

نحسبهم جميعا من الأشقياء المعذنين في بيوتهم ، وهو ما تأباه البدهاة
وتأباه أبناء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم في حياة الامام خاصة ، أن يستمد آراءه في المرأة
من حياته البيئية .. فقد كانت تجاربه في الحياة العامة مددا لا ينقذ
لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج الى
تجربة مكررة ، وشاعت المقادير أن تنقضي حياة الامام على المرأة يد
في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطاع التي قال فيها
ابن أبي مياس المرادى :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسم
فلا مهر أغلى من على وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم
والذي يجزم به مؤرخ الامام أن حياته البيئية خلت من شكاة لم
يألفها الأزواج في زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة
الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت
بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر .. وهى رعاية لها ورعاية لمقام
أيها لاشك فيها ، فقد كان النبي عليه السلام كما جاء في الاثر يغار لبناته
غيرة شديدة ، وروى عنه انه قال وهو على المنبر مرة : « ان بنى هشام
ابن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ،
ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، الا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى
وينكح ابنتهم .. فانها بضعة منى يربىنى ما رابها ويؤذنى ما آذاها »
وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر
الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها .
وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ،
وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين
وتزوج بعدها تميم نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عددهم

المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم في « الرياض النضرة » للمحب الطبري انه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون

وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخباره ، أبا سمحا يستريح الأبناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتى ، تقتل غدا بمصيبة لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل آل تبايع حتى تأتاك وفود العرب ويبعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت .. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يسطلحا .. فان كان الفساد كان على يدى غيرك ، فعصيتى فى ذلك كله ! » ..

فلم يأتف أن يساجله الرأى ليقنعه ، وجعل يقول له : « أى بنى !.. أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام .. وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ؟ .. ومن تريدنى ؟ .. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دباب دباب .. ليست هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيما لزمنى من الأمر ويعينى ، فمن ينظر فيه ؟ .. فكف عنك أى بنى »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان .. فذلك

سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أنبأؤه في محافل الروع ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباهه الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شيء اليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها الى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه : من أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقا .. فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء الا في معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه هم بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين والحسن . وأنتم حق أبنائه في احسان أسمائهم ، فاختار لهم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز ما يقال فيها انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه ، وان أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته هيبض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

صورة مجملّة

من كلمات الامام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث
يقول : « يا دنيا غرى غرى .. غرى غرى ! »
وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..
انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..
فقد خلق الامام ، وفي كل خليفة من خلافة الكبار اجترأ على
الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجترأ
خلق شجاعا بالغا في الشجاعة ، وزاهدا بيّن الزهد ، ودارسا مجبا
للحقيقة الدينية يتجرأها حيث اهتدى اليها ..
والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ..
والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم ..
وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده الى غاية من
ورائها ..
فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارىء من
الطوارئ ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..
صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة
بحذافيرها ..
هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبايع الى ما لوفها الذي
اشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده
الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم ..
وأقبل الناس على الدنيا ، بل هروا الى الدنيا ..

واذا بخليفة جرى عليها زاهد فيها ، يقف لهم في طريقها
ويصدّهم عنها ..
يصد ماذا ؟ ..
يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..
يصد الطبيعة الانسانية ، وهي منطلقة من عقال التقوى ..
يصد ما لا سبيل الى صده بحال ..
فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فان الانسان قد يعيش
عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..
وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها
أو سعت اليه ..
فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له في اجتنابها ..
ومن آيات الشهادة أن يساق اليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك ،
وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..
ومن آيات الشهادة أن يساق اليها ، ولا حيلة له في تحقيق أغراضها
ولا في الخروج من مأزقها ..
ومن آيات الشهادة أن يتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا
حيلة في تبديل أولئك الأنصار ..
ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل انسان ..
فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..
خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة
مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام ..
وصورته المجمل لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة
المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..
وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغي أن ينزل عن محنة
القدر التي لا يغلبها غالب ..
وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدير .. ولكننا اذا

قلنا انه أخفق في العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق
وأما قول انه أخفق في العمل وعسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها
أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

وحق لا شك فيه انه أخفق حيث يشرفه اخفاقه ، وحيث يخفق
الآخرون لو نصبتهم الأقدار في مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف
عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب
اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قاله ابن عباس ورسول
الله في مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا
الأمر .. فان كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا ؟ ..
قال : « والله لئن سألتها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا ..
والله لا أسأله رسول الله أبدا » ..

وآمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق
الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سأله : « أنبايع
الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأ نصف الذين سبقوه ولم
يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا في موقفه منها مثل ما رأوه
في موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

أى ختام أشبه بهذا الشهيد النصف من هذا الختام ..
لقد ولد كما علمنا في الكعبة ، وضرب كما علمنا في المسجد .. فأية
بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! ..

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّادُ

الحُسَيْنُ أَبُو الشَّهَدَاءِ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسائل

ليس من عا-تي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقى عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديعها الى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارئ الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات . وقد استغرب منها أمورا كالتى يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغريباء » ..

عجبا ! .. إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يَصْلَوْنَها نارا حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ..

كان هذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديع الى هذه الطبعة : مسكينة هذه الانسانية !.. لا تزال في عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الاثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية في كل شيء الا في ضمير الانسان وروح الانسان حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى .. حقيقة واقعية في أعصاب الكرة الأرضية اذا صح هذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها في أقصى المشرق حتى تداعى له سائر الأعصاب في أقصى المغرب وفي أقصى الشمال والجنوب حقيقة واقعية في كل شيء الا في ضمير الانسان وفي روح الانسان ، وهذا هو المهم والأهم اذا أردت للانسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام ..

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء في سبيلها . فأنعم بقدوم « أبى الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق كبير من بنى الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات في سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال

تفاعل أو لا تفاعل .. تتشاءم أو لا تتشاءم .. ليست هذه هي المسألة ، وانما المسألة هي ان طريق التفاوض معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته في سبيلها ..

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد .. وفي هذه الآونة التي تتردد فيها هذه الحقيقة في كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء المريعة الى ذكرى شهيدنا الأكبر فنحنى الرؤوس اجلالا « لأبى الشهداء » ..

عباس محمود العقاد

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنية والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تفتن الأريحية بالمنفعة ، وتفتن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما اذا اصطدما — ولا سيما في الأعمال الكبيرة — لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المسكرين . فهذا للأريحية حتى يجب المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجب الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يترأى

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المآخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظام ..

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله في النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية أخذت من المنفعة بسنة من سنن الخلق التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك ..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما تقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة التي لا ينالها

صاحب الأريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مرء فيه ..

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فاذا قيل ان حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال ان الأريحية أبقي وأنجح اذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين وأصحاب الأريحية اذن أبعد نظرا من دهاء الطامعين والتهازين للقرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم - شعروا أو لم يشعروا - بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيل الى أناس أنهم طائشون متهمجون

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ..

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين ويشكرون ملامتهم على ناقتهم ..

والذين يجنحون بمزاجهم الى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبون عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التى من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب

فليس يخشى على الناس يوماً أن ينسوا منافعهم ويقصروا في خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها سائر منكرين ولكنهم يخسرون الأريحية إذا فقدوها وفقدوا الإعجاب بها والتطلع إليها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الإنسان على منفعته لا يغنيهم في حياتهم العامة أو في حياتهم الباقية . أما الأريحية التي تتجاوز بها الإنسان نفسه في سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهي الخليفة النافعة للنوع الانساني بأسره ، وإن جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثل عال ..

صراع بين الأريحية والمنفعة

في ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادئ وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه: ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحاً بين رجلين أو بين عقليين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحاً بين الامامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الامامة من حزب الامام

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئاً عند محبيه ولا عند مبغضيه

فاذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز في الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال: ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة

على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان
ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين أو بين عقليين
وحيلتين . وإنما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية
والمنفعة في جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير
بما قد بلغه من الفوز والغلبة ..

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من
« تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » .. فإن يزيد لم يكن له فضل قط
في قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وإنما كانت الدولة
تتمسك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد
حدث بعد موت يزيد أن بوع ابنه معاوية الثاني بالشام — وكان من
الزاهدين في الحكم — فنادى الناس الى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أمّا
بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين
استخلفه أبو بكر فا أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم
أجدهم ، فأتتم أولى بأمركم فاختراروا له من أحببتهم » ثم أوى الى بيته
ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا
منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالحجاز

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية .. ورأي
معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأي الطالبين وخصوم الأمويين ، فقد
ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه .
ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم النصح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن
عيوبه وملاهيته . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في
الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر ليه نفسه » .. قال :
« وما عسيت أن أعيب حسينا ؟ .. والله ما أرى للعيب فيه موصعا »

وتمّ قِيلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها
في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة

معاوية على « علي » بحجته في الاقتناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية ..

فهذه التعلقة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد ..

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدونهم على ترديدها. فقد الثار المزعوم وسورة العصية المحتاجة ، ثم يساعدونهم على ترديدها. في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهراً بطلب الخلافة ولا متعرضاً لمزاحمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا ان الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليه آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عرييد يقضي ليله ونهاره بين الخمر والطناير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيد فيقضي فيه الأسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال ذلك تمهيداً للملك ولا تدريباً على حكم ولا استطلاعاً لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد .. وإنما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايته ، فاتصر الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداورة ، واتصر يزيد بأرذل ما في النفس

الانسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء
أقام الحسين نيلته الأخيرة بكرملاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت
العاجل بعد سويحات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا
يستحيون أن يفارقوه في ضوء النهار . فأبوا الا أن يموتوا دونه ، وقال
له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن تتخلى عنك ولم نعذر الى الله
في أداء حقك ؟ .. أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي
وأضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقتلتهم
بالحجارة دونك حتى أموت معك » . وقد برء بقسمه وبقي ومات ..
ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا اني أعلم
اني في أثرك لاحق بك لأحييت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له
أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا — رحمك الله — أن
تموت دونه » وأوماً بيده نحو الحسين

وقتل الحسين .. وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبين من بعده الى
أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهن على الرجل من
أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك
الجواب عليها ..

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة
الجامعة . وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذي أظهر
الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب
ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته »

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن
عفيف الأزدي الذي ذهب إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى
يوم صفين . فصاح بالوالي غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن
مرجانة ! .. أقتل أبناء النبين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ .. انما
الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه »

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب ..
الى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية
نصرة الحسين ..

والى الأغوار المزدولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية
نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام
وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون
الى الجزاء .. يسرعون اليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين في تلك
المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يمتقدون فيه التحريم ! ..
بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرددون من مواجهة الحسين
بالضرب في كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس
نسائه فيما انتزعوه من أسلاب !.. ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه
وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذلك

وتقابل وسائل النجاح في المزاكين كما تتقابل المقاصد والغايات ..
فكان شعار معاوية وأشياعه : « ان لله جنوداً من العسل » وهو يعني
العسل الذي يداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو
كان من الأصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي
والأشتر النخعي بهؤلاء الجنود !.. وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد
الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيراً لمعاوية في حروب الشام .. فانه مات
مسموماً على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون
يزيد !.. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية
« ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا
وشيكين أن ييلنوا مقصدهم من قريب . فقد كان هانيء بن عروة شيخ
كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتليه حتى قيل
انه « اذا صرخ لبّاه منهم ألف سيف » . فزاره عبيد الله بن زياد - والي

يزيد على الكوفة - ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه . وقيل ان هانئاً عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عندد ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانئ المقربين . فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبه ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » . ولو انه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ..

وليقول من شاء ان قتل ابن زياد كان صواباً راجحاً .. وان التخرج من قتله كان خطأ فادحاً من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان صواباً فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذي لا يستطيعه الا القليلون ..

كذلك يقول من يقول ان الأريحية التي سمّت اليها طبائع أنصار الحسين ، اما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يصلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة ولئام . وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الفرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعاً أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ .. انهم لم يطلبوها لأنهم متقادون لنواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الايمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويقنعون بها وسوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعاً بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر اذن في آخر المطاف

الى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين
وكذلك يقول من يقول: ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت
أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير .. وينسى
هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن
العور ليسبر في مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وأما تكون الندرة
هنا أدل على جلالة المرتقى الذي تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس
المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين ..

فمدار الخلاف اذن في هذه الجولة التاريخية إنما هو الفارق الخالد
بين مزاجين بارزين كائناً ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع
السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة
في النزاع بين الطالبين والأمويين ، وخاصة في النزاع بين الحسين ويزيد
فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها في توضيح
الفارق بين خصائص هذين المزاجين، وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح
في كفاح الحياة ، سواء نظرنا الى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد
القريب ..

أسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجرين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، الى الثرات الموروثة ، الى السياسة ، الى العاطفة الشخصية ، الى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمّية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمّية ناقما الى الشام وبقي هاشم منفرداً بزعامة بني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز ..

ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمّية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة الى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصعب ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمناً من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش في حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالاسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية في منازل النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار وبلغ من تغفل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أنّ أباً لهب عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وانما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن بأنها

« حَمَّالَةُ الحَطَب » .. كناية عن السعي في الشر وتأثير نار البغضاء ..
ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين ويقول
للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك
اليوم عظيماً » .. فلما قال العباس : « إنها النبوة ! » . قال : « نعم
إذن ! .. »

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ، وكان اسلام بيته
أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح في
القوم بعد اسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه .. قُبْح من
طليعة قوم .. هلا قاتلتهم ودفعتهم عن أنفسكم وبلادكم ! .. »

وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب غلبة الاسلام غلبة
عليه ، فنظر الى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة الطائر المتعجب وهو يقول
لنفسه : « ليت شعري بأي شيء غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه
السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له :
« بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! .. »

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم
يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب الشام يهتف كلما تقدم
الروم : « ايه بني الأصفر » ، فاذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني
الأصفر ! »

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ،
فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حراماً « من دخله
فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم
الذين يزداد لهم في العطاء عسى أن يذهب ما في قلوبهم من الكراهة لغلبة
الاسلام ..

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون اليه ولا يقاعدونه ، حتى يرم بذلك وأحب أن يمسخ ما بصدورهم من قبله .. فتوسل الى النبي أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ..

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشترأب أبو سفيان الى هذه الفتنة ، وخیل اليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها الى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمانة الاسلامية بأسرها .. فدخل على «علي» والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما في وسعه من خيل ورجل : فتأدى بهما : « يا علي ! وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأها عليه — على أبي بكر — خيلا ورجلا وأخذنها عليه من أقطارها » ..

وهو ولا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قرارا لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء ..

فلم يخف مقصده هذا على «علي» رضي الله عنه ، وقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خطيناه وإياها » . ثم أنبه قائلا : « يا أبا سفيان ! .. ان المؤمنين قرم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض .. متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم »

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمر تجري في مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من ججورها ..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ،
لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء يوتهم ، وأصبحت الدولة
الاسلامية أموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها الا من كان من أمية أو
من حزبها . فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يصدق العطاء على
الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والى الشام
يجتذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف
فلما قتل عثمان رضي الله عنه كان المتنفعون بمناصب الدولة وأموالها
جميعا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان الى جانب
أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعا معروفا النهاية من مطلع الرواية ،
فقتل علي بن أبي طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ..
ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له
أمرهم وضاق صدره بجذالهم ومغالهم ، وكان رجلا سكتا يكره المنازعة
ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وقضى له معاوية بالمعجل
منها والتوى عليها بموئجها . وزاد على ذلك كما تواتر في شتى الروايات
أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسنه ، ووعدا أن يزوجها يزيد
ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعده المال ولم يف بوعده الزواج

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده الا أن تخاف
فتنة . فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع
بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي
أن يدفن الى جوار جده ، فقليل له : « ان أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففي
مقابر المسلمين سعة .. وهذه فتنة » .. فسكت على مضض

اهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، الا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضي بنيتة الى أقرب المقربين اليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل الى ذلك بما طاب له من وسيلة .. فلثاء أهل الشام وكتب بيعته الى الأفاق ، ثم همّه أمر الحجاز فكتب الى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع الى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من قصص وعبت .. فعزله معاوية وولى سعيداً بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد الى ما أراد . فكتب معاوية الى عبدالله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيداً أن يوصل كتبه اليهم ويبحث اليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من إبطاء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتباً فسلمها اليهم .. ولتشدد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسيئاً خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه »

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة في اقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أتم تعزلون وتؤمّرون وتجبون المال وتقسمونه »

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيّر بين أن يصنع كما صنع رسول الله اذ لم يستخلف أحداً ، أو كما صنع أبو بكر ، اذ عهد الى رجل ليس من بني

أيّه ، أو كما صنع عمر اذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أيّه
فقال معاوية مغضباً : « هل عندك غير هذا ؟ »
قال : « لا .. »

والتفت الى الآخرين يسألهم قائلاً : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير...
فقال متوعداً : « أعذر من أنذر !.. إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس- فأحمل ذلك وأصفيح ، واني قائم ببقالة .. فأقسم بالله لئن ردّ علي أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا ييقن رجل الا على نفسه »
ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم الى المسجد ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :
— هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا ييرم أمر دونهم ولا يقضي الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله فبايع الناس ..
وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز ..

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها ..
فأوصى ابنه « انه لا يضاف الا هؤلاء من قریش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقّذته العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فان خرج عليك فظفرت به فاصفيح عنه ، فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً
« أما ابن الزبير فانه خب ضب ، فاذا أمكنته فرصة وثب .. فان هو فعلها فقدرت عليه ، فقطّعه إرباً إرباً الا أن يلتصم منك صلحاً ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ..

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو الى يزيد في سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أئداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزباد ، وعمرو ابن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتصيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أن خذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام »

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشيريه .. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية ، فان خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعي الى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء نفر فتدعوهم الى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فان بايعا والا فاضرب اعتاقهما .. »

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد نفسه باثارة النفوس وإيفار الصدور عليه !

وقد ذهب رسول الوليد الى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما في المسجد .. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « ان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقترحوا علي بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سراً ، ولا أراك تقنع بها مني سراً »
قال الوليد : « أجل ! »

قال الحسين : « فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحداً »

ثم انصرف ومروان عاضب صامت لا يتكلم .. وما هو الا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتني والله ! لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتل بينكم وبينه »
فأنكر الوليد لجأته وقال له : « أتشير علي بقتل الحسين ! والله ان الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله »

وهكذا انتهت المنافسة بين بني أمية وبني هاشم الى مفترق طريق لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصديق والفاروق وكفى بالاسلام فضلا في هذا المجال أنه غلب العصية بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصية المكبوحة عصية موجودة غير معدومة ..

وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة والانقياد فاتفق كثيرا في مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى اللسان بوادر العصية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان - على خلاف رأي العباس في استبقائه وألقاه - قال العباس : « مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب فاقلت مثل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفتريين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عباد وصاح به : « كذبت لعمرك الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الخرج ، ولو كانوا من قومك - الأوس - ما قلت هذا .. »

وقد مات الفاروق وهو يوصي علياً فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت

شيئا ، فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين » ..



ومن عجائب الحيل التي تحاول بها الفرائز الانسانية أن تبقى وجودها وتمضي لطبيعتها ، أن بنى أمية اتفقوا من حرب الاسلام للعصية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بني هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. واذا نهضت هذه الحجة على بني هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتقمين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلفظ القول الى أبناء علي ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل علي ومضطرا الى تنقص علي والغض من دعواه . فكان بذلك مضطرا الى التقيضين في آن.

انه ملك وباع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون عليا عليه وهو لا يملك ان يفاضله بقرابة النبي ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة في قرش . فتجنب النسب والسابقة ، وعمد الى شخص علي في منازعات الخلافة ، فاتهمه بثرثرة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكائنة التي هو مغلوب بها ويستبقي الدولة التي هو بها غالب .. ولج في ذلك حتى قتل أناسا لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علي الى شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه .. وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورا من حيث حارب عليا في مقام السمعة والشعور ..

وان مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر أبيه لهي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال الى مفترق الطريق

زواج الحسين

وكانما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي قصاص التاريخ ،
فأضاف إليها أناس من ثقافتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة
بين قلبين متآلفين . وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزینب بنت
اسحق التي كان يهاها يزيد هوى أدنفه وأعياء

وكانت زینب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت
زوجة لعبدالله بن سلام القرشي والي العراق من قبل معاوية

فرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض
خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته .. فلما علم أبوه سر مرضه
أرسل في طلب عبد الله بن سلام واستدعى إليه أبا هريرة وأبا الدرداء ،
فقال لهما: إن له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خيلا غير ابن سلام ، لدينه
وفضله وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه . فخدع ابن سلام بما بلغه
وفاتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر الى أبي هريرة ليلتصها
ويستمع جوابها . فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره
ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يفضب الله
فطلق ابن سلام زوجته واستعجز معاوية وعده .. فاذا هو يلويه به ويقول
بلسان ابنته: إنها توجس من رجل يطلّق زوجته وهي ابنة عمه وأجمل
نساء عصره ..

وقيل: إن الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند
زینب خاطباً .. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزینب : « انك لا تعلمين
ملايا خيراً من عبد الله بن سلام »

قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما
معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال »

واستشارته في اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبيله
رسول الله ، تضعين شفتيك في موضع شفتيه »

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحدا ، هو راحة النبي وسيد
شباب أهل الجنة »

فقال معاوية متغيظاً :

إنمعي أمّ خالدٍ ربّ ساعٍ لقاعدٍ

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلاً : « ما أدخلتها في بيتي
وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت لإحلالها لبعولها »

فان صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها
ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة
يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارضاء ، وكان بينهما كما أسلفنا
مفترق طريق ..

مُوازَنَة

لخص المقرزي المنافسة التي بين الهاشميين والأمويين في بيتين فقال :
عبد شمس قد أضرت لبني ها
ثم حرباً يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لمعلي ، ولالحسين يزيد
وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضاً موجزاً لهذه المقابلة المتسلسلة بين
أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ، ولكننا نجتزئ هنا بالمقابلة بين
الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد ..
فأياً كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين ، فلا مراء البتة في خير
الرجلين ..

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في
حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقاً وأظهر فضلاً
من الحسين في خصومته ليزيد بن معاوية
والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوها موازنة بين الهاشميين
والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها
على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر في هذه القرون أموي قح ، الا
ظهرت فيه الخصال الأموية الممهودة في القبيلة بأسرها ، ولم يظهر في خلالها
هاشمي قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى
في محمد بن عبد الله عليه السلام
والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد مناف ، ثم
الى قريش في أصلها الأصيل ..

ولكن الأمرين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وان اتحدتا في الأرومة..
فبنو هاشم في الأغلب الأعم مثاليون أريجيون ولا سيما أبناء فاطمة
الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم عمليون قعبيون ، ولا سيما الأصلاء
منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فان الأخوين في
البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغريبان من
أمتين بعيدتين ، تبعاً لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على
ذلك النحو الذي يأذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ،
تأخذ كل شعبة منه بناحية من فواحي الوراثة

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى
في الصورة والقامة والملامح ..
وفي نسل أمية شبهة تشير إليها ولا تزيد ، فهي محل الإشارة والمراجعة
في هذا المقام ..

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من علية قرش ؟ » ..
فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس » . فقال :
« صفهما لي » . فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن
الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيهم كأنهم
أسد غاب » . قال : « فصف أمية » . قال : « رأيتها شيخا قصيرا ، نحيف
الجسم ضررا ، يقوده عبده ذكوان » . فقال معاوية : « مه ! .. ذاك ابنه
أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه .. وأما
الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به »

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب « المثالب » أن أبا عمرو بن أمية كان عبداً
لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهاني - وهو من
الأمويين - ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد ..
ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب في الجاهلية-

قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعاً الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه .. ولم يكن بنو أمية كذلك .. فتخلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتأسي في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زيدي ولواه بشمها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشي وأعطوه حقه ..

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى قنيل بن عدي ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عفت وذاد القنيل عن بلد حرام
يشير الى قنيل أبرهة الذي أغار به على مكة . وقال عن أمية إنه «معاهر»
لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بني زهرة ، وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة . فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر في اختلاف النشأة والعادة — مع اختلاف الخلقة الجسدية — فنرى انهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ..
فقد كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية .. وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطيف والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان ووسائل الحيلة على النجاح ويتفق كثيراً في الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات

الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لا يقدرّون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ..

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من إيمانهم بدينهم أن عبد المطلب - جد النبي عليه السلام - أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون إليه .. فإن لم تكن في بني هاشم موروثه من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلاً بعد جيل ، وهي أخلق أن تزاد في الأسرة تمكناً بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس إليه ..

وانك لتتحدّر مع أعقاب الذرية في الطالبين - أبناء علي والزهراء - مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيل اليك أن هذا الزمن الطويل لم يعد قط بين الفرع وأصله في البخصال والعادات .. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجباً : ان هذه لصفات علوية لاشك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويحجب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطيء في كلامه ولا في عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها علي وآله ؛ تجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة في الأسر يستوي فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبالي ما يفوقها من النفع اذا هي استقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى علي بن أبي طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صورة مصغرة من صور علي ابن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيداً عن رهق الشباب وما يعاب به مثله » وما روي عنه « انه كان مقيماً ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقیل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحطه عنه حتى يحطه يحيى رضى الله عنه » ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجراته في بيت المال ، كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا أكلنا »

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته ببغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحشودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولى منهزماً وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي ما يكون

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيثم العجلي انه كان مدسوساً عليه ، وانه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابي » ويحيى الشهيد هذا هو الذي قال ابن الرومي جيئته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

غلو شهد الهيجا بقلب أيكم
 غداة التقى الجمعان والخيـل تمعج (١)
 لأعطى يد العاني أو ارتد هاربا
 كما ارتد بالقاع الظليم (٢) المهيج
 ولكنه ما زال يغشى بنحره
 شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
 وحاشى له من تلـكم غير أنه
 أبى خطة الأمر الذي هو أسمع
 وأين به عن ذلك ؟.. لا أين - انه
 اليه بعرقيه الزكـين محرج
 كأنى به كالليث يحمي عرشه
 وأشبـاله لا يزدهيه المهيج
 كدأب علي في المواطن قبله
 - أبي حسن - والفصن من حيث يخرج
 كأنى أراه اذ هوى عن جواده
 وعقر بالترب الجبين المشجع
 . فصب به جسماً الى الأرض اذ هوى
 وحـب به روحاً الى الله تعرج

وقد أصاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيى
 ولا أسلافه من قبله الا علياً صغيراً يتأسى بعلي الكبير ، أو غصناً زاكياً
 يخرج من دوحته الكبرى ، « والفصن من حيث يخرج » كما قال ، ولولا قوة
 هذه الطباع في أساس الأمرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة
 الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال
 - وهو بعموده الحديدية وجراته التي لا تنزعزع ويقينه الذي لا يلوي

(١) معج الفرس : أسرع سيرة في سهولة
 (٢) ذكر النعام

به الاغراء والوعيد - كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل
باب خير وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لمرو بن وّد وقد تهيئه مئات
الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد يبرزوا له بشكة القتال ودروع
انزال ..

ولم يكن لبني أمية - على تقيض هذا - نصيب ملحوظ من الخلائق
المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم
من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها .
بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي الى صفات تقابل تلك
الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا .. فتمكنت فيهم قبل
ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي دربتهم عليها المساومات التجارية
وراضهم عليها مراس المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم
بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم
والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع
والاقبال على الترف ومناعم الحياة



ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما
تقابلا في كثير من الخلائق والخطوط .. ولكنهما تفاوتتا في تمثيل أسرتيهما
كما تفاوتتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما .. فكان الحسين بن علي
نموذجاً لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجاً لأفضل
المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من
مناقبها المحمودة الا القليل

وليس بنا هنا أن تفصل القول في أحوال كل من الرجلين وخصائص
كل من النموذجين ، ولكننا نجتزئ منهما بما يملأ الكفتين في هذا الميزان،
وهو ميزان الأريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي
يندر نظيره في جميع التواريخ

مكانة الحسين

وإذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبي عليه السلام .. ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربياً مسلماً أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر حمداً وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطئ دلالة الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في تنسبهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكننا المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمجبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

قلولا هذه المزية في الحسين لما وضع الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرون هنا وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التي كشفت النفس الانسانية في جانبيها منها قوين ، يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد . وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد



ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب إنسان الى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تتعطف اليه القلوب

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه .. قال علي رضي الله عنه : « لما ولد الحسن سميت حرباً فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني ما سميتوه ؟) . قلت : (حرب !) فقال . (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميت حرباً ، فجاء رسول الله فقال . (أروني ابني .. ما سميتوه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسين) .. »

وذهب الى الحسين واخوته كل ما في قواد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق القواد الى انذرية من نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمعه الى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة ما يبكي الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوماً ، فمرّ على بيت فاطمة فسمع حسينا يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟ » وكان يقول لها : « ادعي اليّ ابني » .. فيشبهها ويضمها اليه ، ولا يبرح حتى يضحكها ويتركها ضاحكين . وروى أبوهريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فيرى الصبي حمرة لسانه فيمض اليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده في بعض هذه المجالس فقال متعجباً : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله ان لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يرحم ؟ »



وخرج ليلة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودي ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك .. » قال : « كل ذلك لم يكن .. ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .. » وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران .. فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! .. (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .. نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »



ولا يوجد مسلم في العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه

الكرم سبطيه وأحب الناس اليه .. فهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التي تتخذ منها الأمم والمملع عنوانا للعب ، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والقداء .. فإذا بها محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت اليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة ..

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان — مع الزمن — مبلغه من تلك المكافأة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لسته أشهر وعاش الا الحسين وعيسى بن مريم » . وقال آخرون انه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أثنى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقه ابهامه فيمصه ويجعل الله في ابهام رسوله رزقا ينفذه ، ففعل ذلك أربعين يوما وليلة ، فأثبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. »

وروي عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التي تمزها وتغليها فتلتبس لها مولدا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ..



ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كقوة لتلك الصورة الرمزية التي نسجت حولها الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة . فكان ملء العين والقلب في خلق وخلق ، وفي أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابته من جده وأبيه .. الا أنه كان في شدته أقرب الى أبيه . قال رضي الله عنه مشيرا الى الحسن : « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن العلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي »

صفات الحسين

وقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يقولون عليها ويردونها الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إلقاء . ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذرّ وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يَا عَنَاء ! إِنْ اللَّه قَادِر أَنْ يَغَيِّرَ مَا قَدْ تَرَى . وَاللَّهِ كُلُّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ : وَقَدْ مَنَعَكَ الْقَوْمَ دَنِيَاهُمْ وَمَنَعْتَهُمْ دِينَكَ ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ وَأَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ ، فَاسْأَلِ اللَّهَ الصَّبْرَ وَالنَّصْرَ ، وَاسْتَعِذْ بِهِ مِنَ الْجَشَعِ وَالْجَزَعِ ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الدِّينِ وَالْكَرَمَ ، وَإِنَّ الْجَشَعَ لَا يَقْدُمُ رِزْقًا وَالْجَزَعَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَلًا »

وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقها في مصرع كربلاء



وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

| | |
|---|--------------------------------------|
| إِغْنِ عَنِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ | تَغْنِ عَنِ الْكَاذِبِ وَالصَّادِقِ |
| وَاسْتَرْزُقِ الرَّحْمَنَ مِنْ فَضْلِهِ | فَلَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ رَازِقِ |
| مَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّاسَ يَغْنُوهُ | فَلَيْسَ بِالرَّحْمَنِ بِالْوَاتِقِ |

ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لِعَمْرِكَ أَنْتِ لِأَحَبِّ دَارًا تَكُونُ بِهَا سَكِينَةُ الرَّبَابِ
أُحِبُّهُمَا وَأَبْذُلُ كُلَّ مَالِي وَلَيْسَ لِعَاتِبٍ عِنْدِي عِتَابُ
وهما - سواء صحت نسبتها اليه أو لم تصح - مبران عن خلقه في بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حذباً على الأبناء وأشد الأزواج عطفاً على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التي ذكرت في البيتين السابقين خطبها أشرف قرش بعد مقتله فقالت .

« ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله .. » وبقيت سنة لا يظلمها سقف حتى
فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ..

خلق كريم

وقد سنَّ الحسين لمن بعده سنَّة في آداب الأسرة تليق بالبيت الذي
نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ،
فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب
كثيرة ومآثر عدة كان يستمع الى رأي الحسن ولا يسوءه بالمراجعة
أو المخالفة . فلما همَّ الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى
من الحسين . فلم يوافقته وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له :
« والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضي
بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. »
فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ..

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة انه ركه دين فساومه معاوية
بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى
أن يبيعهما مع حاجته الى بعض ما عرض عليه - لأن أباه تصدق بمائتها
لفقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء
وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة ..
فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قرش ذاهب
الى المدينة فقال : « اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم
كان على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزرأ الى أنصاف
ساقيه .. »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم ويصرهم
بشئون دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه
تلك القوارص التي كانت تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة
لا غشاضة فيها على المخطئين
فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا اعرابياً يخفف الوضوء
والصلاة فلم يشاء أن يجيباه بغلظه وقال له : « نحن شابان وأنت شيخ
ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فتوضأ ونصلي عندك ،
فإن كان عندنا قصور تعلمنا » . فتنبه الشيخ الى غلظه دون ان يأتف
من تسييهما اليه . ومر يوماً بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على
عادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيئوني »
ودعاهم الى العشاء في بيته

ورويت الغرائب في اختبار حذقه باللقه واللغة كما رويت أمثال هذه
الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام .. فقيل : ان اعرابياً دخل
المسجد الحرام فوقف على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه
فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « إياه أردت .. جئت لأطارحه الكلام
وأسأله عن عويص العريية » . فقال له بعض جلسائه : « ان كنت جئت
لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأوماً الى الحسين عليه السلام ، فلما سلم
على الحسين وسأله عن حاجته قال : « اني جئتك من الهرقل والجعلل
والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

— يا اعرابي ! .. لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون
فأجابه الاعرابي قائلاً يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت
مجيبي على قدر كلامي ؟ .. ثم أذن له الحسين فأشدد أبياتاً تسعة ، منها :
هفا قلبي الى اللهو وقد ودع شرخيه
فأجابه الحسين مرتجلاً بتسعة أبيات في معناها ومن وزنها وقوافيها ،
يقول منها :

| | |
|------------------|-----------------|
| فما رسم شجاني قد | محت آيات رسميه |
| سفور درجت ذيلين | في بوغاء قاعيه |
| هتوف مرجف ترى | على تلييد ثوييه |

الى آخر الآيات .. ثم قسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ،
والجعل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو
القليب الغزير الماء ، وفي هذه الكلمات أوصاف البلاد التي جاء منها
واشارة اليها ..

فقال الاعرابي : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاما ،
وأذرب لسانا ، ولا أفصح منه منطقا »
وتلك رواية من روايات على منوالها ، ان لم تنبئ بما وقع فهي منبئة
بما تداوله الناس من شهرة الحسين في صباه الباكر بالعلم والفصاحة ..
ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه وبهم من
الطمع في اصغائه أكبر من طمعهم في عطاائه .. ولكنه على هذا كان يجري
معهم على سرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز
ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة الحال . وقد لاهمه أخوه
انحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقى به العرض » الا أنه في
الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده
من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية وأليقهما
ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة
فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه
عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع
معاوية ان بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له نقضه حتى تمضي
المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معاً ، فقال لصحبه يوما وقد
أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسب وطيب وصلات : « ان شئتم
أنبأناكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من
الطيب وينهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام
من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن .. »

. وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل . وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعاً من الجمل الى صفين . وليس في بني الانسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون القروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التي تتم بها مراقة الجسم على الحركة والنشاط .. ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحي : جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرصة يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفرة فهو الغالب



أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والتقصّد في تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأق للزهر والريحان .. وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيتها بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متجباً : « جارية تحبك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » . قال : « كذا أدبنا الله .. قال تبارك وتعالى : (وإذا حُيِّمَ بِتَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) .. وكان أحسن منها عتقها »

وكان يميل للفكاهة ويأنس في أوقات راحته لأحاديث أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه الا ما كان يجعل بمثله .. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب .. وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجري ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون .. فلم يصبه أحد منهم بمحابة ولم يملك أحد منهم أن

ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعينه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره في نفسه . فقال انه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله في حسين تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ..

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقاتلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة في معظم خلافته وعاداته وملكاته وأعماله

فيزيد بن معاوية عرق النسب في بني عبد مناف ثم في قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والملاحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الاثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة في سبيل نفع الناس ..

وبيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مرء فيها ..

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نذكرها في هذا المقام أن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله في حروب الاسلام ولم يكن له من الوفرة ما يبقى على كثرة الوارث . وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام في الزواج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك ! .. »



كذلك ينبغي أن نذكر حقيقة أخرى في هذا المقام ، وهي أن معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما أشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه السلام في عامة الحوائج وفي اثبات ما يجبي من الصدقات وما يقسم في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبي شيئا من آيات القرآن الكريم

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والعلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه القفلة ويقول : « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتلت ما خلا حجرا فاني لا أعرف بأى ذنب قتلت .. »

وأم يزيد هي ميسون بنت مجدل الكلية من كرائم بني كلب المعرقات في النسب ، وهي التي كرهت العيش مع معاوية في دمشق وقالت تشوق الى عيش البادية :

لبس عباءة وقر عيني أحب اليّ من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب اليّ من قصر منيف ..

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق من بني عمي فقير أحب اليّ من علج غنيف !..
فأرسلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدا عن أبيه ..



وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف في أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بني كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل في رياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب

وهذه صفات في الرجل القوي تزينة وتشجذ قواه ، ولكنها في أعقاب السلالات — أو عكارة البيت كما يقال بين العامة — مدعاة الى الاغراق في اللهو والولع بالفراغ لأنها هي عنده كل شيء وليست مدداً لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم

وهكذا انقلبت تلك الصفات في يزيد من المزية الى النقيصة .. فكان تكلفه بالشعر الفصيح مغرأ له بمعاشرة الشعراء والندماء في مجالس

الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القُرَّادين والفَهَّادين ، فكان له قرد يدعوهُ « أبا قيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه أتاناً في السباق ويحرص على أن يراه سابقاً مُجَلِّياً على الجياد ، وفي ذلك يقول يزيد كما جاء في بعض الروايات :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها أن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به
جيساد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغاً في المذمة حين قال فيما نسب اليه :
« والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . ان
رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ،
والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً »



ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجتماعها على ادمانه الخمر ،
وشغفه باللذات ، وتوانيهِ عن العظام .. وقد مات بذات الجنب وهو لما
يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب
والاقراط في اللذات . ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقاً واختراعاً من
الأعداء لأن الناس لم يختلفوا مثل ذلك على أيِّه أو على عمرو بن
العاص ، وهما بفيضان أشد البغض الى أعداء الأمويين .. ولأن الذين
حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم
عمل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجترأ على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان
ولم يكن هذا التخلف في يزيد من هزال في البنية أو سقم اعتراه كذلك
السقم الذي يمتري أحيانا بقايا السلالات التي تم بالاقراض والدثور ،
ولكنه كان هزالا في الأخلاق وسقماً في الطوية .. فقد به عن السظائم مع

وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزيد في وجهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب في صباه بمرض خطير — وهو الجدري — بقيت آثاره في وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع في البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهواً وفراغاً ، كانت همته الوائية تقترب به عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعاً عن دينه ودنياه فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعهم عن بلاد الاسلام — أو بلاد الدولة الأموية — تناقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً
بدير مُرَّانَ غندي أم كلثوم
فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرا عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله في خلواته

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمت في كل شيء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بزيارة محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى في تلك الخصال التي تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزيد السن وسابقة الميلاد فلما تنازعا البيعة كان الحسين في السابعة والخمسين مكتمل القوة غاضج العقل وفي المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد في نحو الرابعة

والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء
ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور
الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول في أمة العرب حيث نشأ الأسلاف
والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار .. وهذا على أن السابعة
والخمسین ليست بالسن التي تملو بصاحبها في الكبر حتى تسلبه مزية
الفتوة ومضاء العزيمة ..

كذلك لا يقال ان « الوراثة المشروعة » في الممالك كان لها شأن يرجع
بيزيد على الحسين في ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية
ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سقاها المسلمون
في ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب في صدر الاسلام يوجبون
طاعة يزيد لأنه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبي في أمر الخلافة
لأنهم قرابة محمد عليه السلام

فقد شاعت عجائب التاريخ إذ أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية
تضخ فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضح قط في أمثالها من القضايا ،
وقد وجب أن ينخلل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التي أعاتته
وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطاقته وأهله .. ولئن
كان في تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضع لتكون
هي عصية القبيلة من بني أمية ، وهي هنا نزعة مواربة تعارض الإيمان
الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس



لهذا شك بعض الناس في اسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك
لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك
في صدق دين أبي سفيان لأن أخباره في الاسلام تحتل التأويلين ، ولكن
معاوية كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه
أنظاره التي حفظها الى يوم وفاته . وليس ييسر علينا أن نفهم كيف ينشأ
معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشئ في بيت مدخول

الاسلام ، يتصارع أهله أحياناً بما ينم على الكفر به أو التردد فيه
إنما هي الأثرة ، ثم الخرق في السياسة ، ثم التماذي في الخرق مع
استشارة العناد والعداء .. وفي تلك الأثرة ولواحقها ما ينشئ المقاتلة من
أحد طرفيها في هذه الخصومة ، ويتم المناظرة في شتى بواعثها بين ذينك
الخصمين الخالدين . ونعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين
واليزيد الا المثالان الشاخصان منهما للعيان .

رِجَالُ الْمُعَسَّكِرِينَ

كان الحسين في طريقه الى الكوفة - يوم دعاه شيعته اليها - يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة - والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت - فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء نزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له جهم بن عبيد العامري : « أما أشرف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب جهم بن عبيد ، فان الناس جميعا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن علي ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكائتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينا ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين

ومن هؤلاء هانيء بن عروة من كبار الزعماء في قبائل كندة ، وشريك ابن الأعور، وسليمان بن صرد الخزاعي، وكلاهما من ذوى الشرف والدين بل كان من العاملين لبنى أمية من يخزعه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فترك معسكر بنى أمية ليلوذ بالمعسكر الذي كتب عليه الموت

وبالبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحي في كربلاء وقد رأى القوم يهيمون
بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش :
« أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » . فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموي
وذهب يقترب من الحسين حتى دافاه فقال له : « جعلت فداك يا ابن
رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجت بك في هذا
المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو
علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني
تائب الى الله مما صنعت ، فهل ترى لى من توبة ؟ »

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر
كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! »

فمجهل ما يقال على التحقيق انه لم يكن في معسكر يزيد رجل يعينه
على الحسين الا وهو طامع في مال ، منستيت في طمعه استماته من يهدر
الحرمان ولا يبالى بشيء منها في سبيل الحطام

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوى الرأي كعمرو بن العاص ، والمغيرة
ابن شعبة ، وزباد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم
التاريخ أنصار دول وبناة عروش ..
وكان لهم من سمعة معاوية وذرائه شعار يدارون به المطامع ويتحطلون
من التأييم ..

لكن هؤلاء بادوا جميعا في حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد
من نسيهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على
غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله
ويقبضون الأجر فرحين ..

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة ..
وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير ..
وكانوا في خلافتهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه الطغمة من

الناس ، ونعني به مثال المسخاء المشوهين .. أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدثه ، فاذا بهم يفرغون حقدهم في عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا اتفقوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حق الضراوة الذي لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق يزمرتهم على مثال قريب من مثالمهم عمر بن سعد ابن أبي وقاص ..

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كره المنظر قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليحمله حجة يحارب بها عليا وأبناءه ؛ ولكنه لا يتخذ حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كانه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحق في حضرة المال

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة في مسلاخ انبان « وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقطع رجله من وحل اذا مشى » وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، انه أباح المدينة في حرم النبى عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام في الدم ، وقتل أثناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على انه عبد قن لأمير المؤمنين .. !

وانطلق جنده في المدينة الى جوار قبر النبى يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى في تقدير الزهرى سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى . ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهازل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا في مسجددهم !.. بعد القتل الذريع والانتهاك العظيم ... وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم

واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم واتهمناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان في حرز وأمان ، والحمد لله الذى شفا صدرى من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدتقا مريضا ما أرانى الا لما بى .. فما كنت أبالى متى مت بعد يومى هذا ... »

وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة انما هو الحقد في طبائع المسخاء الشائعين ... يوهم نفسه انه الحقد من ثار عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب في قرش ، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتبس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية . فقالت له بعد مولد زياد انها حملت به في تلك الليلة ..

وكانت أم عبيدالله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعبرونه بها وينسبونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيه — وهى عوارض لها في نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة — انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية ..

فكان اذا غاب الحرورى من الخوارج ، قال : « هرورى » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سيفك من بعيد

أضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجل والأمر بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق

مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب
والعداوة وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا »

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيد الله بن
زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ في شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة
والعشرين ، وكان يزيد ييغضه ويغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية
بالتمهل في الدعوة الى بيعة يزيد ، فكان عبد الله من ثم حريصا على دفع
الشبهة والغلو في اثبات الولاء للمهد الجديد ..

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد
ابن معاوية ، كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه
المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق..



ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع عبيد الله
ابن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ،
وقد كان العبدول بها عن تلك النهاية في يديه

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى ، وهى درة التاج فى ملك
الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع إليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل
العزوف ، وينسب إليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدرى وانى لحائر

أفكر فى أمرى على خطرين

أترك ملك الرى والرى منيتى

أم أرجع مأثوما بقتل حسين

وفى قتله النار التى ليس دونها

حجاب ، وملك الرى قرة عينى

فان لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من لسان حاله ، لأنها
تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متمرين يطيعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهتهم مذبة طائشة لا يبالي من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب ..

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له فى ملكه ، قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معوته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال
وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معوته فهو شهيد يذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ..
وهى اذن حرب جلادين وشهداء ..

الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن يظهر ببسطة الحسين وعبد الله بن الزبير في مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والي معاوية يومئذ على المدينة .. فلما جاءه كتاب يزيد بنعي أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذاً شديداً ليس فيه رخصة » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشار عليه بمشورته التي جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فان بايما والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه في مخضر مروان ، اذ عاد الحسين الى بيته .. وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله .. فخرج منها ليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم في مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتسكبه كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الأمر الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس في مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومساءه ، يتعرف رأييه وما نمى اليه من آراء الناس في الحجاز ، والعراق ، وسائر الأقطار الاسلامية

فلبث الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آوثة وآوثة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ،

واضحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور
وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتابعات ،
فبدأ له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعمهم من قريب ..
وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يمهده له
طريق البيعة ان رأى فيها محلاً لتمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة
قبل ذلك كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم
من محبتكم لقدمي عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن عمى وقتى من
أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب الى بحالككم وأمركم ورأيكم ..
فان كتب الى أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجى منكم على
مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا
ان شاء الله . فلمعرى ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالأسط ،
والدائن بالحق ، والسابس نفسه على ذات الله ، والسلام »

ثم بلغ الحسين أن مسلماً قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين
اثنا عشر ألفاً ، وقيل ثمانية عشر ألفاً ، فرأى أن يبادر اليه قبل أن يتفرق
هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا
لمشيرييه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا في مشورتهم عليه بين موافق
ومشيط وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق
كان أخوه محمد بن الحنفية يرى - وهو بعد في المدينة - أن يبعث
رسله الى الأمصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على
بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا
عقله » ..

وكان عبد الله ابن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك
ونصحنا لك وبايعناك ، وان لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة
فتطاع ولا تعصى »
ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين ..

ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني . قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا في الوثوب بالحجاز .. لأن ذلك لا يتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقية وقال له : « على أى شيء عزمت يا أبا عبد الله ؟ » فأخبره برأيه في اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟ .. فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت في شيء »

ولعل أنصح الناس له في هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء .. سأله :
— ان الناس أرجفوا أنك سائر الى العراق ، فما أنت صانع ؟ ..
قال :

— قد أجمعت السير في أحد يومى هذين
فأعاذة ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :
— انى أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك . ان أهل العراق قوم غدر . أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ، فان بها حصونا وشعابا ولأبيك بها شيعة
فقال له الحسين :

— يا ابن عم !.. انى أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير
قال ابن عباس :

— ان كنت لابد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان

السفر الى العراق

وخرج في الثامن من ذي الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفاً ألوفاً يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفاً في تقدير ابن كثير وثلاثين ألفاً في تقدير ابن قتيبة

وهال الأمر النعمان بن بشير - والى الكوفة - فطار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوماً بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلناً أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يشب الا على من وثب عليه ..



وتسابق أنصار بنى أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجري بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التي كان يتولاها في ذلك الحين وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرفاء المدينة - أي مشايخ أحيائها - فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الرب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء »

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانيء بن عروة ، فقبل له انه مريض لا يبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنباً للقائه والسلام عليه فذهب عبيد الله اليه يعود ويطلق اليه ، وجاء في بعض الروايات انه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانيء ، فأبى أن يفتاله وهو آمن في بيت مريض يعود .. وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو في

دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث الى هانيء بن عروة يقون له : « ابعث مسلم بن عقيل يكون في داري ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودني » ... فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتله في بيتك » ... قال شريك : « أما لو قتلته لجلست في الشجر لا يستعدى به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنك تقتله ظالما فاجرا » ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ..

وتضطرب الأقاويل في وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواياتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينشأ عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد في مغالبة مسلم وشيعته ، وانه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه ..

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادى في الناس بشعار الشيعة : « يا منصور !.. أمت » . ثم تقدم الى قصر الامارة في تعبئة كعبة الجيش ..

ولم يكن في القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما في وسع المستميت من حيلة هي على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل صوب في المدينة يعدون ويتوعدون .. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البريء بالمدب والغائب بالشاهد ويذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين ..

مقتل مسلم بن عقيل

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم ابن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم في زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو في خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقي وحيدا في المسجد لا يجد معه من يده له على منزل يأوى اليه

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليراوا من بقي من تلك الجموع .. فلم يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا . فخیل اليهم أنها مكيمة حرب وان القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين في أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب — رؤوس العرفاء — والمقاتلة ، صلى العشاء الا في المسجد »

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره »

وصاح في رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير !.. ثكلتك أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواد السكك .. وأصبح غدا فاستبرئ الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل .. »

وما هي إلا سويحات حتى جىء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل الى القصر جريحا مجهدا ظمآن فاهوى الى قلة عند

الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب عييد الله : « أتراها ما أبردها !
والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم ! »

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل
ومعها قدح فصب منها في القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينثف الدم في القدح
كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيته ، فحمد الله وقال :
« لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته »

وأدخلوه على عييد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي
وقاص ، فناشده القراية ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته . فأبى أن
يصغى اليه !.. ثم أذن له عييد الله فقام معه فقال مسلم : « ان على
بالكوفة دينا استدته سبعمائة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عني ،
وابعث الى الحسين من يرده ، فاني قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه
ولا أراه الا مقبلا .. »

فعاد عمر الى عييد الله فأفنى له السر الذي ناجاه به وأوصاه أن
يكنمه . ثم دعا عييد الله بالحرسي الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه
— واسمه بكير بن حران — فأسلم مسلما اليه وقال له :
— لتكن أنت الذي تضرب عنقه

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به
وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرحبة وألقيت جثته الى الناس . ثم
أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة في المدينة كان مسلم يأوى اليهم
أول مقدمه اليها ، ومنهم هانيء بن عروة الذي تقدمت الإشارة اليه ...

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل في التاسع من ذي الحجة ليلة العيد .. وكان
خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله الا وهو
في آخر الطريق ..

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر الصيداوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليه .. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن على » وينهى الناس أن يطيعوه

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. ان هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقت بالهناجذ فأجيئوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه .. »

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حلق ، فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله بن زياد ، فألقوا به من شرفات القصر الى الارض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ..

وجعل الحسين كلما سأل قادما من العراق أنباء بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاة ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع .. »

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يرحلون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقية ان تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام .. »

فتفرقوا الا أهل بيته وقليل ممن تبعوه في الطريق ..

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبد الله يقودها الحر بن يزيد التميمي اليربوعي في ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله في الكوفة

فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

— أيها الناس اني لم آتكم حتى أتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق . فقد جئتكم .. فان تعطوني ما أطمئن اليه من عهدكم وموآثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه .. فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

— أقم الصلاة !

وسأل الحر :

— أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلي بأصحابي ؟

فقال الحر :

— بل تصلى جميعا بصلاتك

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلزمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظمهم وهم يصغون اليه فقال :

« أيها الناس ! .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل في عناد الله بالائتم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله . ألا وأن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة

الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالغي ، وأحلوا
حرام الله وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غيري ..

« وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلمونني ولا تغدلونني،
فإن بقيتم على بيعتكم تصيوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم وأهلي من أهلكم،
فلكم في أسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي ، وخلعتم بيعتي ، فلعمري
ما هي لكم بنكير ، والمغرور من اغتر بكم . فحظكم أخطأتم ، ونصييكم
ضيعت .. ومن نكث فأنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم ، والسلام»
فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه إليه يحذره العاقبة وينبئه:

« لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين :

— أبالموت تخوفني ! .. ما أدري ما أقول لك .. ولكني أقول كما قال
أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأئذره
أنه لمقتول فأشد :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه

وخالف مشورا وفارق مجرما

فإن عشت لم أنسدم ، وإن مت لم ألم

كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

ثم سار الركبان ينظر بعضهما إلى بعض كلما مال الحسين نحو البادية
أسرع الحر بن يزيد فردده نحو الكوفة . حتى نزلا بينوي ، فاذا أراكت
مقبل عليه بالسلاح ، يحيى الحر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا
من عبيد الله يقول فيه : «أما بعد فجمعجج بالحسين حتى يلفك كتابي ويقدم
عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء .. وقد

أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بأقائك أمري والسلام »
فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله بن زياد ويخشى
رقيقه الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين -
زهير بن القين :

— انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه . يا ابن رسول
الله ! .. ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم . فلمرى
ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به . فهل تناجز هؤلاء
فأعرض الحسين عن مشورته وقال :
— انى أكره أن أبدأهم بقتال

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى
بأرض همدان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس
بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى يذكر الديلم اسم أبيه — سعد —
فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم
الحسين الى العراق قال عبيد الله لعمر :

— تفرغ من الحسين ثم تسير الى عمك
فاستعفاء ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :
— نعم نفيك على أن ترد الينا عهدنا ..
فاستمهله حتى يراجع نصحاء .. فنصح له ابن أخته بن المغيرة بن
شعبة — وهو من أكبر أعوان معاوية — ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :
— والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير
من أن تلقى الله بدم الحسين



وبات ليلته يقلب وجوه رايه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ،
فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشرف الكوفة من ليس يغنى فى
الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد الا أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية

الرى .. فسار على مضض وجنوده متاقلون متخرجون ، الا زعاف
المرتزة الذين ليس لهم من خلاق
وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة .. فندب عبيد الله
رجلا من أعوانه - هو سعد بن عبد الرحمن المنقرى - ليطوف بها ويأتيه
بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جىء به وقيل انه
من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم الى المسير
وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكرلاء على نحو من خمسة وعشرين
ميلا الى الشمال الغربى من الكوفة . نزل بها فى الثانى من المحرم سنة
احدى وستين ..

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه فى اللؤم
وسوء الطوية ، وينفردان بتصرف الأمر فى قضية الحسين دون مراجعة
من ذى سلطان .. وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر بن ذى الجوشن
عبيد الله المعموز النسب الذى لا يشغله شئ ، كما يشغله التشفى
لنسبه المعموز من رجل هو بلا مرء أعرق العرب نسبا فى الجاهلية والاسلام
.. فليس أشهى اليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره
فيها بذله ورغمه ..

شمر بن ذى الجوشن

وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يعضه من الحسين مايعض
كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم
وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما فى هذه
الخلة متناصحان متفاهمان .. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له
الولاء فى قلوب المسلمين ولو الى حين .. لولا ذلك الضغن المتزج
بالخليفة الذى هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأى مصيب ، ولا لتفكير
فى عاقبة بعيدة أو قريبة ..
فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وإبقائه بأعينهم فى مكان

ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة
لكنهما لم يفكرا فى أيسر شىء ولا أنفع شىء للدولة التى يخدمانها ..
وانما فكرا فى النسب المغموز والصورة المسوخة ، فلم يكن لهما من هم
غير ارغام الحسين واشهاد الدنيا كلها على ارغامه

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان الحسين « أعطانى أن
يرجع الى المكان الذى أقبل منه أو أن نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا ،
أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده »

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح
الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى
يده .. لأنه لو قبل ذلك لبايع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب
به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه الى العراق قد تفوا
ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سميان حيث كان يقول : « صحبت
الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل
وسمعت جميع مخاطباته الى الناس الى يوم قتله .. فوالله ما أعطاهم
ما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيره الى ثغر من الثغور ،
ولكنه قال : « دعونى أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو دعونى أذهب
فى هذه الأرض المريضة حتى تنظر الى ما يصير اليه أمر الناس »



ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدا ليأذنوا له فى
حملة الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز
الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة
ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم فى مناهضة الدولة
الأموية ..

وأيا كانت الحقيقة فى هذه الدعوى فهى تكبر مائة عبيد الله وشمر
ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بشئيهما .. كلاهما كفى أن يحول
بين صاحبه وبين خالجه من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذى فطر عليه ،

فلا يصدر منهما الا ما يوائم لتيمن لا يتفقان على خير ..
وكأنما جنح عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد،
فابتدره شمر ينهيه ويجنح الى الشدة والاعتساف ، فقال له :

— أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله لئن رحل من
بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى
بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو
وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك
ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه في القيادة ثم يخلفه
في الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين
المسكرين ..

فعدل عبيد الله الى رأى شمر وأتقذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان
هو تردد في اكراه الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل .
وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد .. فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة
والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعده عندى شافعا ... انظر
فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ،
وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون .
فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم ..
فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت
فاعتزل جندنا واخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام »
وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ..

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمد لها طالب منفعة ولا طالب مروءة ،
ومضت مئات السنين وهى لا تمحو آثار تلك الأيام فى تاريخ الشرق
والاسلام ..

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية .. لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتي الصواب فيها - ان أصابت - من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتي الخطأ فيها - ان أخطأت - من سبب واحد يتمتع الاختلاف عليه . وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليك أن يذهب الى النقيضين ..

هي حركة لا يأتي بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تملو على حكم الواقع القريب الذي يتوخاه في مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق ..

هي حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذي يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ..

هي ليست ضربة مغامر من مغامري السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره .. فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ..

هي حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ، ولكنها تقاس بمقياسها الذي لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو في كل أوان ..

ولا تنسى أن السنين الستين التي انقضت بعد حركة الحسين ، قد

انقضت في ظل دولة تقوم على تخطيطه في كل شيء وتصوب مقاتليه في كل شيء ..

ان القول بصواب الحسين معناه القول بيطلاق تلك الدولة ، والتعاس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس بخاف على أحد كيف ينسب الحياة وتبتذل القرائح أحيانا في تنزيه السلطان القائم وتأييم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذي يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغتمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفها غير ذلك السيف ويغتمون من عطاء غير ذلك العطاء

انما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التي تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين في خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول انه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التي تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة ..

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم دعى في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله الى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الانسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق الذي يرضى به يزيد ..

فاول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح ..

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتخليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجّلها عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع

كان المغيرة بن شعبة واليا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناذ ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته في اضعاف الهولاء قبل تمكثهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

— لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن يعته مما يتم بين المسلمين علي هينة . فقال للمغيرة :

— أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة انه ليس بالعسير ، اذا أراداه أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وانه سيبدل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعائته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب ..

فلما لقي معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

— قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة

لهأله معاوية وهو يتهيب ويتأني :

— ومن لى بذلك ؟ ..

قال :

— أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين
المنصرين أحد يخالفك

فردّه معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتمجلوا
بإظهار هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبي سفيان ، فأطلع هذا بعض
خاصته على الأمر وهو يقول :

— ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم .. ويزيد
صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .. فالتق أمير المؤمنين
وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل
فان دركا في تأخير خير من فوت في عجلة ..

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يغيضه في ابنه » .
وعرض عليه أن يلقي يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كذب اليك يستشيرك
في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وانك ترى
له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ..

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وان
معاوية أخذ برأى زياد في التؤدة فلم يجهر بمقد البيعة حتى مات زياد ..
وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه .
فكانت امرأته « فاخنة » بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة
يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

— ما أشار به عليك المغيرة ؟ .. أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك
يتمنى هلاكك كل يوم

واشتدت نقمة مروان بن الحكم — وهو أقرب الأقرباء الى معاوية —
حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ،
وكب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيتك » . فمزلّه

معاوية من ولاية المدينة وولاهها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن
يثور ويعلن الخروج وذهب الى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له :
— نحن نبلك في يدك وسيفك في قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن
ضربته قطعناه .. الرأي رأيك ، ونحن طوع يمينك

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير الى دمشق ، فذهب الى قصر معاوية
وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا
الباب . ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول .
فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ،
وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة يزيد ، بل كان
سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذى
تذرع معاوية الى الخلافة باسمه . فقال لمعاوية :
— يا أمير المؤمنين ... علام تباع لي زيد وتركنى ! .. فوالله لتعلم أن
أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وانك انما نلت ما نلت بأبى
فسرعى معاوية عنه .. وقال له ضاحكا هاشا :

— يا ابن أخى ! .. أما قولك ان أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير
من معاوية .. وأما قولك ان أمك خير من أمه ، ففضل قرشية على كلبية
فضل يسن ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتاه الله من
يشاء .. قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ،
فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب
أن دارى مملوءة رجلا مثلك بيزيد . ولكن دعنى من هذا القول وسلنى
أعطك ، وولاه خراسان

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملا فى الخلافة بعد معاوية ، وكان بعضهم
ليبعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء — وان جمعتهم مصلحة الأسرة
فترة من الزمن — لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء

وتبشره بالضمان والقرار ..

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والاكراه ..
وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء ..

وظهر من اللحظات الأولى ، ان المغيرة بن شعبة كان سمسارا يضافق
على ما لا يملك .. فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف في غيرهما ،
فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، واذا البصرة تتلكأ في الجواب وواليتها
يرجى الأمر ويوصى بالتامل فيه فلا يقدم عليه معاوية في حياته ، واذا
أطراف الدولة من ناحية همدان ثور ، واذا بالحجاز يستعصى على بني
أمية سنوات ، واذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين . ولو وجدت خارجا
يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز ..

بل يجوز أن يقال - مما ظهر في حركة الحسين كل الظهور - أن الشام
نفسها لم تتطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين . فقد
كانوا يتخرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل
لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب
والحوادث التي تلبت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم
على اضطراب عهده وقلة ضمائه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى
بقية حياته وبعد موته بسنين

ونحن اليوم نعلن من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر في عهد
يزيد أو بعد عهده ، فيخيّل لنا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم
يكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها
طوالع ملك تمنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء

بواعث الخروج

نعم كانت هناك نلحة عن الخروج لو كان يزيد في الخلافة رضى المسلمين
من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموثل والدولة ، وكان المسلمون
قد توافوا على اختياره لحبهم اياه ، وتمظيمهم لمقله وخلقه واطمئنانهم الى
سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على تقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا في أحوج الدول
الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح . وكان اختياره لولاية
العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها نمن رضاه ومعوته جهرة
وعلائية من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن
ليبيعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبيعوه وان تعطلت حدود
الدين وتقوضت معالم الأخلاق

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن علي أن يبيع مثل هذا الرجل
ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب
الحق في الخلافة وصاحب القدرة عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين :
هذه ، أو الخروج ! .. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه



ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسبون
هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان في كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية في نفس
الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وانه كان رجلا يؤمن أقوى
الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو
أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها .
لأنه مسلم ولأنه سبط محمد .. فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند
الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبون ويسبون أباه على
المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته
لأحكام الدين في أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا
أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة
الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على
الدين في رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعمة والتأمين ؟

كيف يسام أن يرشح للامامة من لا شفاعه له ولا كفاية فيه الا أنه
بن أبيه ؟ ..

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشئون الملك
والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح
من السلطان ماجمح وتقيم ما انحرف وتملى له فيما عجز عنه . وهذا ابنه
القائم في مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان
عروفا على شر أو موافقا على ضلالة . فما عسى أن تكون الشهادة له
بالصلاح للامامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على
هذا التغرير ؟ ..

ثم هي خطوة لارجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء
وصدق السريرة . فاذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما
عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل قيصة فيه قد يتعلل
بها المتعلل لنقض البيعة واتتحال أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو
للأمة الاسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فانما يطلب منه أن
ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد
هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه في أذهان الناس بالفض من
الحسين في سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه . فكانوا يسبون عليا على
المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره
حيث كانوا فيقهروهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، والا أصابهم
العنت والعذاب وشهروا في الأسواق بالصلب والهوان . فمجاراة هذه
الأمور كلها في مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت
الجيل بعد الجيل بغير أمل في التغيير والتبديل . فمن أقر هذه السنة في
مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما
بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه
هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجيش في صدر الحسين يوم دعاه

أولياء بنى أمية الى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته في امامة المسلمين، كائننا من كان القائم بالأمر وبالفاء مابلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهى بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج ان كان لابد خارجا في وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان ..

مصرع واتصل

أما نتائج الحركة كلها — اذا نظرنا اليها نظرة واسعة — فهى أنجح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد
فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات ..

ولم تنقضى ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه في كربلاء ، فلم يكدر يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة ! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن في جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب

ولأصابة هذه الحركة في نتائجها الواسعة دخل في روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه .. فلم يخامرهم الشك في مقتله ذلك العام ، ولا في عاقبة هذه الفعلة التى ستحقيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام

فقال مارين الألماني في كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة الحسين في خروجه على يزيد انما كانت عزيمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به

النصر الآجل بعد موته ، ويحى به قضية مخدولة ليس لها بغير ذلك حياة «
فان لم يكن رأى الكاتب حقاً كله ، فبعضه على الأقل حق لاشك فيه
ويصدق ذلك — فى رأينا — على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين
الذهاب لوجهه الذى يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحق
ببنى أمية من جراء قتله .. فهو بالغ منهم باقتصارهم عليه ما لم يكن ليلغنه
بالنجاه من وقعة كربلاء



وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهاى
لرحيل ويودع أصحابه فى الحجاز . فقال لهم : « ان الموت حق على ولد
آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطأ التى لا يبالى راكمها ما يصيبه من
ذلك القضاء ..

لكنه لم يكن يأس من اقناع الناس والتفافهم به منذ خطوته الأولى .
ولم يعقد عزمه على ملاقة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف
الى أى منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقاً على الكره منه الى عبيد الله
ابن زياد ..

وتباين آراء المتأخرين خاصة فى خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان
هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والأكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى
ما يكون من استجابة الناس له أو اعراضهم عنه وضعفهم فى تأييده
وليس للمتأخرين أن يقضوا فى مسألة كهذه بقولهم وعاداتهم ، لأنها
مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربى وعاداته فى أشباه هذه المواقف .
وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية فى البعث التى يتصدى
لها المرء متعمداً القتال دون غيره فضلاً عن البعث التى قد تشتبك فى
القتال وقد تنتهى بسلام كبعثة الحسين

فكان المقاتلون فى وقعة ذى قار يصطحبون حلالهم وذرايعهم ويقطعون
وضن الرواحل — أى أحزمتها — قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون
والمشركون معا يصطحبون الحلال والذراعى فى غزوات النبى عليه

السلام ، وكان مع المسلمين في حرب الروم صفوة نساء قرش وعقائل
بيوتاتها ، وكان النبي عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة
في غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهي عادة
عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم
مقبلون عليه ، وفي معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة
العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا يبض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيانا ويقتلن لستم بمولتنا اذا لم تمنعونا
وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضى
عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم في أنفسهم وفي أبنائهم وأموالهم ،
لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس
من المروعة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة في يديه
ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، اذا غلبوه وأخفق في
مساعاته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما
يكونون وهو مخذول ..

والمسلم الذي ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره
وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية
في حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره
الذي يوشك أن ينقلب عليه

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق ، كان حركة
قوية لها بواعثها النفسية التي تنهض بشله ولا يسهل عليه أن يكتبها أو
يحيد بها عن مجراها ..
وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هي قضية عامة تتجاوز

الأفراد الى الأعقاب والأجيال ، سواء آكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين .
أم حربا لبنى أمية ..

انما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين ننظر اليها من زاوية واحدة ضيقة
المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب
المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه
فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما
كانت الوسيلة ..
وعلة ذلك ظاهرة قريبة ..

وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها ونم
يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..
وهنا غلطة الشهداء ..
بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب
لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه الى مرماه ؟
ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب
طباعها « ويصدق الخير فى طبيعة الانسان والخير عزيز والدنيا به شحيحة ؟
منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء
ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تسنى خلافة
الراشدين ، أو حيث تسنى الدولة الدنيوية التى يرض بها أصحابها
ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جدا من عنايته بالتنظيم والالزام
نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدى من المال حتى
احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هى التى أوصى بردها الى أصحابها
قبل قتله ..

وتلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا
نلم تكن بالعقبة العصية التذليل ..

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى
عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله
الأنصار وباع الحسين على يديه ثلاثون ألفا كما جاء في بعض الروايات .
ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى
ويستولى عليه وينشئ الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد
ذلك أن يوجه الدعاة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم
الولاية ويحشد الأجناد ..

فاذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى
الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سبق عبيد الله هذا في يوم من الأيام الى
يديه وكان في وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن
معاوية نصيرا من أعنف أنصاره ..

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه ، أو لأنه اعتقد أن
الحق بين وأن الباطل بين .. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة
القدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينمى على الدولة
القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات ..

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه في الخلافة قائم على شيء واحد وهو
اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه
رهبة من السلطان أو ضعفا في اليقين ، فالرأى عنده أن يكتب الى صاحبه
يعلمه بانقضاء الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك
حتى يشوبوا اليه ..

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا تفهما نحن الآن ، ولكن
قد يفهما يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق
والقاروق ..

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين علي ومعاوية على هذا الوضوح الذي لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ...

لكنه في بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لدى عينين وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبلها بعد عهد الفداء في سبيل العقدة والايامان .. بعد العهد الذي كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه ان خالفوه في أمر الاسلام .. بعد العهد الذي كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعازل والأزواد ... بعد العهد الذي تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون ..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين ويتنصر يزيد في عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين في ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعل على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون »

ان الطبائع الأرضية لا تتخدع في صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، انها تؤثر القنديل الخافت في يدها على الكوكب اللامع في السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع في السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد

انها لا تتخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظلمة الفؤاد ولا تنظر الى السراب ..

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ..
طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات ..
وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة
وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين
ولست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يسلح عليها أمر بنى
الانسان ، فان بنى الانسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم
أرفع من المصيين ، وانهم لهم الشهداء
وانهم لعل صواب في المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ في المدى
القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاق ..
من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ، بل هو أبو الشهداء رينبوع
شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينوع في تاريخ البشر أجمعين
فلا جرم يصيب في المدى البعيد ويخطئ في المدى القريب .. مدى
المنفعة التي تناله هو في معيشة يومه ، وهو المدى الذي لا يأسف عليه
ولا ينص الركاب اليه ..

الحَرَمُ الْمُقَدَّسُ

عرفت قديما باسم « كوربايل » ثم صفت الى كربلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء ..

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء الدنيا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا من تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغري أحدا برؤيتها ثم يثبت في ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها ، فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك الجيرة بغير حساب

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق إليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقترن بتاريخ بنى الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويؤوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمى يعرف لبنى نوعه نصيبا من القداسة وحظا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملته من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التى بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء

وليس في نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الايمان
والفداء والايتار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد في
المحنة والألثة من الضيم والشجاعة في وجه الموت المحتوم .. وهى —
ومثيلات لها من طرازها — هى التى تجلت في حوادث كربلاء منذ نزل
بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط في موطن من المواطن
تجليها في تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون في جانب منها أشرف
ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها في الجانب الآخر منها أخرى ما يخزى به
مخلوق من المخلوقات ..

وحسبك من تقويم الأخلاق في تلك النفوس ، انه ما من أحد قتل في
كربلاء الا كان في وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم
جميعا آثروا الموت عطاشا جياعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو
يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ..

أو حسبك من تقويم الأخلاق في نفس قائدها وقودتها أنهم رأوه بينهم
فاقتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلزمه الا أن
يكون هو أهلا للاستشهاد في سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون في سليقة
الشهيد الذى يأتى به الشهداء

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه .. وقد علم أنهم مخيرون
بين الموت والتسليم فسأله :

— ألسنا على الحق ؟ ..

قال الوالد المنجب النجيب :

— بلى والذى يرجع اليه العباد ..

فقال الفتى :

— يا أبه .. فأذن لا نبالى !..

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون ..

وأراد الحسين - وقد علم أن التسليم لا يكون - أن يبقى للموت وحده وألا يمرض له أحدا من صحبه . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم في كل مرة : « لقد بررتم وعاوتم والقوم لا يريدون غيري ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحدا .. فاذا جنكم الليل فترقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » ..

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم إياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء . وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام .. ماذا تقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضا للنبل ودرية للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. »

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه إثارا لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك

ولم يكونوا جميعا من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التي ترهب العار ولا ترهب الموت . فقال له زهير بن القين : « والله لو ددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك »

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر الى الله في أداء حقا ؟ لا والله حتى أظن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن

معى سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة . والله لا فضلك حتى يعلم الله
أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيى
ثم أحرقت ثم أحيى ثم أحرقت ثم أذرى ويفعل بى ذلك سبعين مرة ما فارقتك
حتى ألقى حمامى دونك .. »

وجيء الى رجل من أصحابه الغرباء نبأ عن ابنه فى فتنة الديلم ، فعلم
أن الديلم أسروه ولا يفكون أساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف
وهو فى حل من بيعته ويمطيه فداء ابنه . فأبى الرجل إباء شديدا ، وقال :
« عند الله أحسبه ونفى » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم
أسأل الركبان عن خبرك .. لا يكن والله هذا أبدا .. »

وقد تاهت هذه المناقب الى مداها الأعلى فى نفس قائدهم الكريم ..
يخيل الى الناظر فى أعماله بكرلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق
بينها أيها يظهر بفخار اليوم ، فلا يدرى آكان فى شجاعته أشجع ، أم
فى صبره أصبر ، أم فى كرمه أكرم ، أم فى إيمانه وأثقة وغيرته على الحق
بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه .. الا انه كان يوم الشجاعة لا مرء ،
وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمدها سائرها بروافد من كل خلق
نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين - شبل على - فى شجاعته الروحية
والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع
الشجعان فى أبناء آدم وحواء ..

ملك جأشه .. وكل شيء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ،
ويغرى بالدعة والمجاراة ..

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناءؤه فى نضارة العمر ، يجوعون
ويظمأون ، ويتشبثون به ويكون ، وملك جأشه روية وإانة ولم يملكه
وثبة واثب الى الغضب أو هيجة مهتاج الى الوعى ، فكان قبل القتال
وفى حومة القتال قويا بصيرا ينفذ الضعف عن عزائمه ، كما ينفذ الأسد
غبرات الحصباء عن لبدته ، ولم يخامرہ الأسف قط فى ذلك الموقف المروء

الا من أجل أجيائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم
ويسمعونه . فقال وهو ينظر الى الأختية ومن فيها : « لله در ابن عباس
فيما أشار به على ! » ..
وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهامها له بين يديه ويرتجز وأمامه
ابنه العليل :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر في ذاك الى الجليل وكل حي سالك سبيلي
فرد ابنه عبرته لكيلا يزيد ألمه على ألمه . وسمعت أخته زينب ، فلم تقو
على حناها ووجلها ، وخرجت اليه من خيائها حاسرة تنادى : « وا ثكلاه !
اليوم مات جدى رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسين
فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسينا ! يا بقية الماضين وثالة الباقين ! »
فبكى لبكاؤها ولم ينش ذرة عن عزمه الذى بات عليه ، وقال لها :
— يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدها .. ويمزيها وهو
في قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول
على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها
الخباء ..

نزول الممالك وتداول الدول وتنجح المطامع أو تخب وتضر المطالب
أو تغيب . وهذه الخلائق العلوية في صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك
وما حوته ، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسي
الأرض وكواكب السماء ..

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة
الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين ، وتباعدتها أبعد
ما تكون المسافة بين قطبين ، فكل ما فيها أرضى مظلم مسف بالغ في

الاسفاف ، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب ..

أللمصادفات نظام وتدير .. ؟!

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من الوشائج
والصلات .. ولكنها - لذلك - هي الأعاجيب التي تستوقف النظر
لعجيبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدير

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ،
وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد واهرمان . ولكنه
كان في حقيقته ضربا من المجاز وفنا من الخيال

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التي آمنت بأورمزد.
واهрман حربا هي أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين
ومقاتليه ..

وهي عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام والمجوسية في تلك
البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسى كان يدافع شيئا
ينكره .. ففى دفاعه معنى من الايمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن
الجيش الذى أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب
قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . اذ لم يكن فيهم رجل واحد
يؤمن بيطان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر
ينفخ عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو
مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين ..

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة
الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم
من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون
الحق وهم يعلمون ..

ومن ثم كانوا في موقفهم ذاك ظلما مطبقا . ليس فيه من شعور الواجب

بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقا في يوم كربلاء قوة
من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور
أقربهم الى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم أكرهوه
بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء
وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة ليبياعوه
على حرب يزيد ، فلما نذبهم عمر بن سعد للقاءه وسؤاله أحجبوا عما
نذبهم له واستغفوه ، لأن جوابهم ان سألوه في شأن مجيئه اليهم : اننى
جئتكم مليا ما دعوتكم اليه ! ..
وركب أناسا منهم الفرع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما
اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى ابان بن
دارم كان يقول :

— قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة
منذ قتلته الا أتانى فيأخذ بتلابيى حتى يأتى جهنم فيدفعنى فيها ، فأصبح
فما يبقى أحد فى الحى الا سمع صياحى

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ،
فقال له : « ماكدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلا شديد البياض ..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمة ، ويخشى أن يصيبه أو
يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم
يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين
وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه . فاذا هم يحاربون
رأيهم الذى يدينون به ، ووليهم الذى يضمنون له الحرمه والكرامة ،
وفى ذلك خزيمه الأئيم

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر
ولؤم فى أيام كربلاء ..

فلا حاجة بالعبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالايذاء

حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذى يلجئ اليه الجبن أو يلجئ اليه طلب المال ، وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللثيم شئ كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطلبيين أو أعداء بنى أمية !

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر فى النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عناها حتى تعيها المغالبة فينطلق بها العنان فالرجل الحبيث المغرق فى الخيانة قد يتصرف فى خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الإلاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا عذالة . وانما شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ليظهروا فى ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة فى صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينه ويستتر بعشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية قواده .. وتلك لجاجة المغالطة فى الشعور ..

أما مجاذبة النفس عناها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء »

ونحب المرأة أن تستحى وتتوارى من المسبة فى هواها ، ثم يغلبها هواها فاذا هى قد ألفت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار واندفاع المتهمجين على الشر فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا

ضرورة ملزمة تقضى بها شرعة القتال ، لهو الاندفاع الذى يسير لنا عمق
الشعور بالاثم فى نفوس أصحاب يزيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور
بالحق فى أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه
العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان
وغير هذا الميدان ، كشمس بن ذى الجوشن ، ومن جرى مجراه .. فهو لا
لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السيل اليه
على أنها - بعد كل هذا - حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير
والمعدة ، وبين النور والظلام .. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالا من
الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت فى
ذلك أقصى مدى الطرفين

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمتابعة ، أن
تتقصى أوائل القتال وتتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب
وقوعها .. فان الأقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ،
سواء كان هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد ..
الا أن الترتيب الطبيعى يستين للعقل من سبب الوقوف فى ذلك
المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه
العطش الى التسليم ، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة
قرون :

منع الفتى هينا فجر عظاما وحوى غير الماء فانبعث الدم
ولم يمتنع طريق الماء فى بادى الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من
جاعة عمر بن سعد ، لم يكونوا على جزم بما يصنعون فى مواجهة الحسين
وصحبه .. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأدوى ،
مابهم القوم هنية ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة ، فشربوا وملأوا
قربهم وأدأواهم بما يفتيهم عن الاستقاء الى حين
والظاهر أن الشر كله كان فى حضور شمر بن ذى الجوشن على تلك

انساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى فى حصار الحسين ومضايقتة
فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة
الجيش وامارة الرى بعد عزل عمر بن سعد بن أبى وقاص .. فبطل
التردد شيئا فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن
بصلوا الى الماء . ولبثوا أياما وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو
امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم
الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء
من حرقة الظأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير
الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة

وفى ذلك المأزق الفاجع ، فضحت طبائع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر
ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية .. فاقترفوا من خسة الأذى
ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر
منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا وامتعاضا
لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، ويبان لما يلي من
وقعها فى النفوس وتسلسل تراثها الى أمد بعيد ..

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه
رأى ولده عبد الله يتلوذى من ألمه وعطشه ، وقد يحّ صوتة من البكاء ،
فحمله على يديه يهيم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله فى الطفل ان
لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل
بسهم وهو يصيح لسمعه العسكران : « خذ اسقه هذا » .. فنفذ السهم
الى أحشائه ! ..

وكانوا يصيحون بالحسين متهاقين : « ألا ترى الى الفرات كأنه بطون
الحيات ؟! .. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا »
ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير

بسهم وقع في فمه .. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم يديه فامتلات
راحتاه بالدم ، فرمى به الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول :
« ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ،
واتقم لنا من القوم الظالمين ! »

وقد كان منع الماء — قبل الترامى بالسهم — نذيرا كافيا بالحرب ،
يسمح للحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة .. ولكنه رأى شمر بن
ذى الجوشن — أبغض مبغضيه المؤلّين عليه — يدنو من بيوته ويجول
حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن
يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصفيه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن
يبدأهم بعداء ..

وكانه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة في الدفاع عن مولاهم ، وعلم
أنهم لا يخلصون في حبه ، ولا يؤمنون بحقه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو
الرغبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقرع ضائرهم وينبه غفلة
قلوبهم ، ورمى بأخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من
سهام القتال . فخرج لهم يوما بزي جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا
عمامة ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه ذليلا على
صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤيديهم أشفقوا أن يتركوا له آذان
القوم فينفذ الى قلوبهم ويلمس مواقع الاقناع من ألبابهم . فضجوا
بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم
ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التي تغضى عنها الأبصار
وتعنو لها الجباه ..

ولكنه صابرهم حتى ملثوا ، وملّ أخوانهم ضجيجهم هذا الذي
يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند أخوانهم..
فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة : « انسبوني من أنا ..
هل يحل لكم قتلى واتهاك حرمتي ؟ ألسنت ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم

يلفكم ما قاله رسول الله لى ولأخى : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟
ويحكم ! .. أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟ »

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه
فى جيش ابن زياد . فقال : « ياشيث بن الربعى ! يا حجار بن أبجر ! يا قيس
ابن الأشعث ! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج ! .. ألم تكتبوا الى
أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبات ، وانما تتقدم على جئند لك
مجنند ؟ » ..

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه
مطمع لاقتناع ، وتحولت الى صفته فئة تعلم أنها تحول الى صف لن
تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطع البقاء مع
ابن زياد لاغتمام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل
الاحتكام الى السيف .. فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات فى
أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه
وتعرض لهم قائلاً : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان
حقا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد
ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا
نحن أمة وأتم أمة .. ان الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيّه محمد صلى الله
عليه وسلم لينظر ما نحن وأتم عاملون ، وأنا ندعوكم الى نصر حسين
وخذلان الطاغية بن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهما الا
سوءا : يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ،
ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن
عدى وأصحابه وهانىء بن عروة وأشباهه »

فوجم منهم من وجم ، وتوقع منهم من توقع ، على ديدن المريب المكابر

إذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعده وتوعدوا الحسين معه ان
يقتلوه أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله بن زياد

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر
الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن بداية التحول كانت مما يخيف
ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد
الذي أرسلوه في أول الأمر ليحطىء الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان
يحسب أن عمله ينتهى الى هذه المراقبة ولا يعدوها الى القتال وسفك
الدم .. فلما تبين نيّة القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلا قليلا ،
وتأخذه رعدة ويتابه ألم شديد .. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس
فقال له :

— والله ان أمرك لمرب .. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو
قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك ..
فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له :
— انى أخيرّ نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو
قطعت أو حرقت ..

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا :
— لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى
قد جئتك تائباً مما كان منى الى ربى ، مؤاسيا لك بنفسى حتى أموت بين
يديك ! ..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مثات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه
ويودون لوه يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم
انهم المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه ييكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين
أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينتقص
عدهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال .. فكلهم ولا ريب يشع بشعوره

ويعتقد في فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق في هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وإيمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوي ، ويهون عليه قتل سبط النبي في هذا السبيل ، وكيف وإن منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه إليه ليقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟ فكلامهم في البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بالاستهتيم ولا يستر ما في طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج في مكانه وحركه القدوة التي يريدونها ولا يتشورون عليها ، كذلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلما وأشدهما حيرة وأعجلهما الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقي الموت في سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ..

والعسكر الآخر أكبر العسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه في ضمير كل فرد من أفرادها ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيك ومغالطة واضطراب ، يحز في الأعصاب ويقذف بالمرء الى الخلاص كيفما كرز الخلاص ..

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهما في الفضاء كأنه كان متشبها بصدرة فاستراح منه بانطلاقه ..

فرحف الى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهما فرماه عن قوسه الى المعسكر وهو يصيح :

— أشهدوا لي عند الأمير اتى أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل في نية القوم ،

وقال الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه :
— قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم ..
وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها
قد تريت حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع
وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت
خندقا لا يسهل عبوره .. فأوفد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من
خلفه ، وهم في كثرتهم التي ترجع عدة صحبه ستين ضعفا قادرين على
هجمته من جميع نواحيه

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون رجلا .. وهم نيف وأربعة
آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الابل ويحملون صنوفا مختلفة من
السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد في عدد الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا
للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التي كانت دعوة مجابة
في ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ..

فان آل على جميعا كانوا من أشهر العرب — بل من أشهر العرب
والعجم — بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب
ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم
محمد بن الحنفية الذي صرع جابرة القوة البدنية بين العرب والعجم في
زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجابرة رجل كان في أرض الروم يفخر به
أهلها .. فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء
بأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومي أن يقيمه ،
فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل
بمعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل على ممن

ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كقوًا لمبارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون في منازلة الشجعان ، كما تبدد السائمة المذعورة بالعراء ..

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمي بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرًا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقات الموت وكرم التحية في ملاقات الفتنة والاعراء .. فإذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفاء للمنازلة وليس أملهم في الغلب بضعيف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها .. فلم تهم الخيل للرمح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ..

فعدل الفريقان الى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد الا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشى رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

— أتدرون من تقاتلون ؟ .. تقاتلون فرسان مصر وقوما مستميتين . لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليل .. لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتهم ..

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة ..

فلما برز عابس بن أبي شبيب الشاكري بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه . فقال لهم عمر :

— ارموهم بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهى تكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان فى جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلى هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟ .. ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندى ممن عدل الى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمى النبال والسهم ، جثا بين يدى الحسين وأرسل مائة سهم لم يكده يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزيمة فى القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الذى تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول الى صفه .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويذجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مشخا بالجراح وهو يناى الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله »

ولم يكن من أصحاب الحسين الا من يطلب الموت ويتحرى موافقه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطئ مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثنى عشر رجلا سوى من جرح ، ولو بقيت لى عضد وساعد لزدت »

مصرغ الحسين

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بين يديه . وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخية التي أوى اليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا فى احراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

— دعوهم يحرقونها .. فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ..

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه فى تلك المحنة المترابكة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فانه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله الى حركات القوم ومكائدهم ، ويدير لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم .. ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزير من أولئك الأعزاء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون فى حشجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول فى أثر كل صريع : « لا خير فى العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ..

وانه لفى هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. اذا

بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب ، واذا بالقتل يتعدى الرجال
المقاتلين الى الأطفال والصبيان من عثرته وآل بيته ، وسقط كل من معه
واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب
عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة
ووضح المصير ..

وكان غلام من آل الحسين - هو عبد الله بن الحسن أخيه - ينظر من
الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ،
فهرول الغلام الى عمه وصاح في براءة بالرجل :
- يا ابن الخبيثة .. أقتل عمي ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربه بيده فانقطعت
وتعلقت بجملدها .. فاعتقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع عن
يبيه ..

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف
المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على
الحيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، ويهايه القريبون فيبتعدون ، ويهم
المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تخرجوا من قتله ، وأحب
كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذى الجوشن وأمر
الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

- ويحكم !.. ماذا تنتظرون بالرجل ؟.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..
فاندفعوا اليه تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة
ابن شريك التميمي على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه
فخرء على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه
بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث
وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسهم ، وأحصاها
بعضهم في ثيابه فاذا هي مائة وعشرين
ونزل خولي بن يزيد الاصبحي ليحتر رأسه ، فملكته رعدة في يديه

وجسده ، فتحاه شمر وهو يقول له :

— فتة الله في عضدك !..

واحترز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه في رعدته ، سخرية به وتماديا في الشر ، وتحديا به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الحبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفا لا يطرقه الشك والاثهام ، فكان ضفته هذا كله ضفتا لا معنى له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلاوى أن يؤلوا به الكرام ، ويجعلوه تحديا مكشوبا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم ييلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار ..

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة يتحدر اليها منحدرون كثيرون

فلم يكن في عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق في رجل طعين مشخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..
ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبي المطاع أصدق الأنصار وأنبأ الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمح الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هي حسبها من شرف مجد وثناء ..

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذي أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وفد ذهب الأمل وحمء الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء في تلك اللحظة المعصية الا أن يجاهد في القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع ..

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شئ يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح .. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شئ ولا ييالي من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليفة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يشخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم . فلم يقروا عليه حتى تعاون على قتله رجالان .. فكان هذا حقا هو الكرم والمجد في عسكر الحسين الى الرمح الأخير

خسة ووحشية ..

وكان حقا لا مجازا ما توخيانه حين قلنا انها طرفان متناقضان . وأنها حرب بين أشرف ما في الانسان وأوضع ما في الانسان

فبينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضمن بالرمق الأخير في سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين يهتفون أسوأ المآثم في رأيهم - قبل رأى غيرهم - من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلو كان كل ما في عسكر الحسين ذهابا ودرا لما أغنى عنهم شيئا وهم قرابة أربعة آلاف .. ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة - قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير - حتى كان همهم الى الاسلاب التي يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التي على أجسادهن ، لا يزعمهم عن حرمان رسول الله وازع من دين أو مروءة . واقبلوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعهد تمزقها لتركوها على جسده ولا يسلبوها . ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معذرة للآثم بالغا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذلك من التفاهة . لكنهم في الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع في مغنم كبير أو صغير . فحرموا الرى على الطفل الظامئ العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض في قتله وروعوا من لا مكرمة في ترويعه .. فربما خرج الطفل من الأخية نائرا وجلا لا يفقه ما يجري حوله ، فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن في الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء . فقد قتل فعلا في كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبي على زين العابدين .. وفي ذلك يقول سراقة الباهلى :

عين جودى بعبرة وعويل واندبى ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب على قد أيدوا وسبعة لعقيل

وما فجا على زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير ، لأنه كان مريضا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذى الجوشن بقتله ، نهاه عمر بن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به في عبد مناف — واما توقعا لموته من السقم المضنى الذى كان يعاينه .. ففجا بهذه الأعجوبة في لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها :

— يا محمداه !.. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا ..

فوجم القوم مبهورين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى العدو كما بكى
الصديق ! ..

لم تنقضى في ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبي محمد عليه
السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذي بر بدينهم ودنياهم
فلم ينقل من الدنيا حتى تقلهم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التيه في
الصحراء الى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين . ثم هذه خمسون سنة
لم تنقضى بعد ، واذا هم في موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد
مدينة : سبايا بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبناءه على
الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفى عليها الصبا »
فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء ..
فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت
بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله - شرفا ولا وحشة - في الآباد
بعد الآباد ..

وكان يوم المقتل في العاشر من المحرم .. فكان القمر في تلك الليلة
على وشك التمام .. فحفروا القبور على ضوءه ، وصلّوا على الجثث
ودفنوها ، ثم غادروها هناك في ذمة التاريخ . ففي اليوم مزار يطيف به
المسلمون متقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه
عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحي الآدمي بين سائر الأحياء
فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب
بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء

مَوْطِنُ الرَّأْسِ

اتفقت الأقوال في مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما
تعدد في موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة الى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..
ومنها انه أرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص والى يزيد على المدينة ،
فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..
ومنها انه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند
باب القرايس ..

ومنها انه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل الى عسقلان ، فدفنه
أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها الافرنج في الحروب الصليبية..
فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن
ينقله الى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعراني في طبقات
الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة
الى الصالحية ، فتلقي الرأس الشريف ووضعه في كيس من الحرير الأخضر
على كرسى من الأنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن في
المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلي في القبر المعروف »

وقال السائح الهروى في الاشارات الى أماكن الزيارات : « وبها — أى
عسقلان — مشهد الحسين رضى الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها
الفرنجة نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة »
وفى رحلة ابن بطوطة انه سافر الى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث
كان رأس الحسين بن على عليه السلام ، قبل أن ينقل الى القاهرة »
وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد
الرقعة على الفرات ، وانه لما جاء به بين يدى يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه

الى آل أبى معيط عن رأس عثمان « وكانوا بالركة ، فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الى جانب سوره هناك فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن هى : المدينة ، وكرلاء ، والركة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . وتكاد تشمل على مداخل العالم الاسلامى كله من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التى تحيا بها ذكراه لا مرأ ..

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك انرأس الشريف ، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف . وانما أصبح الحسين — بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية — معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وان هذا المعنى لفى القاهرة ، وفى عسقلان ، وفى دمشق ، وفى الركة ، وفى كربلاء ، وفى المدينة ، وفى غير تلك الأماكن سواء

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد ..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها فى أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد وكانت فعلة يدارونها بانتوقع فيها على ستة المأخوذ الذى لا يملك مدارة ما فعل . فبات خولى بن يزيد ليلته بالرأس فى بيته ، وهو يبنى نفسه ببنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فراه ينكت ثانيا الرأس حين وضع أمامه في أجانه ، فصاح به مغضبا :
— ارفع قضيبك عن هاتين الشيتين .. فوالذى لا اله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما ..
وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :
— لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !
فخرج زيد وهو ينادى فى الناس غير حافل بشيء :
— أتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم
وأدخلت السبدة زينب بنت على رضى الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعه عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :
— من هذه التى انحازت ناحية ومعه نساؤها ؟
فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثا وهى لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

— هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجترأ ابن زياد قائلا :
— الحمد لله الذى فضحككم وقتلكم وأبطل أهدوثكم ..
وقد كانت زينب رضى الله عنها حقا جديرة بنسبها الشريف فى تلك الرحلة الفاجعة التى تهد عزائم الرجال .. كانت كاشجع وأرفع ما تكون خفيدة محمد وبنت على وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعته وتضحيتها بقية العقب الحسينى من الذكور .. ولولاها لاقرض من يوم كربلاء ..

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :
— الحمد لله الذى آكرمتنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا .. انما

يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله
فقال ابن زياد :

— قد شفى الله نفسى من طاعتك والعصاة
فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها منه ، وقالت :
— لقد قتلت كهلى ، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعى واجتثت أصلى ،
فان يشفك هذا فقد اشتفيت ..
فتهاق ابن زياد ساخرا وقال :
— هذه سجاعة .. لعمرى لقد كان أبوها سجاعا شاعرا
فقال زنب :
— ان لى عن السجاعة لشغلا .. ما للمرأة والسجاعة ؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زنب فسأله :
— من أنت ؟
قال : على بن الحسين
قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟
قال : كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس
فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله
فقال على : الله يتوفى الأتفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت
الا بأذن الله ..
فأخذت زيادا عزة الأثم واتهره قائلا :
— وبك جرأة لجوابى !
وصاح الخبيث الأثيم بجنده :
— اذهبوا به فاضربوا عنقه ..
فجاشت بعمة الغلام قوة لايردها سلطان ، ولا يرهبا سلاح .. لأنها
قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتقت الغلام اعتناق من

اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن قتلته لتقتلني معه .
فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :

— يا للرحم .. انى لأظنها ودت انى قتلتها معه
ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب ان العلة قاضية عليه

وعلى هذا هو زين العابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما
السلام ، وكان كما قال ابن سعد في الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليا
رفيعا ورعا » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمى رأيته في
المدينة » ..

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية
كلمة على شفتى ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمه كيده من الطواف برأس الحسين في الكوفة
وأرباضها ، أنهذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم
أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفي الركب على زين العابدين
مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق
الركبان في الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد

وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد .. ولا نستغرب
أن يتكرر بعضه حتى يظن انه قد وقع في التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن
المناسبة في هذا المقام تستوحى ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا
من الحوار ..

فارتاع من ببجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين بلغتهم ، وقال
يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهم بجنب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

سمية أمى نسلها عدد الحصى

وبنت رسول الله ليست بذى نمل

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير الى الرأس وينكت ثيابه بقضيب في يده : (أتدرون من أين أتى هذا ؟ .. انه قال : « أبى على خير من أبيه وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر » .. فأما أبوه فقد تحتاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلمعري فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلمعري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ..

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية في رده على حجاج على في الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين — وكانت جارية وضيئة — فقال ليزيد : « هب لى هذه » ، فأرعدت وأخذت بشباب عمتها .. فكان لعمتها في الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، زيادا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

— كذبت ولؤمت .. ما ذلك لك ولا له

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لى .. ولو شئت لفعلت »

قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياى تستقبلين بهذا ؟ .. انما خرج من الدين أبوك وأخوك »

قالت : « بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك » ..

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله »

فقالت : « انت أمير تشتم ظالما ، وتهمر بسلطانك »

فأطرق وسكت ...

وأدخل على بن الحسين مغلولاً ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :
— ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى
سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت ..
قال على :

— ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من
قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا
تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : « وما
أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . ثم زوى وجهه وترك خطابه..
وكان لقاء نساء يزيد خيراً من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسيدة
فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبته بكرىلاء فيرددن اليهن
مثله وزيادة عليه ..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاتته ، فلجأ الى النعمان بن بشير
واليه الذى عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين .. وأمره أن يسير آل
الحسين الى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل انه ودع زين العابدين ،
وقال له : « لعن الله ابن مرجانة .. أما والله لو أنى صاحب أهلك ما
سألنى خصلة أبدا الا أعطيته إياها ، ولدفعت الحنف عنه بكل ما
استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى !..
كاتبنى من المدينة ، وأنه الى كل حاجة تكون لك »

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب
وأهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصادر الرواية فيبنى عليه حكمه
فمنهم من يرى انه برىء من التبعة كل البراءة .. ومنهم من يرى انه
أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها .. ومنهم من يقول انه قد أمر بكل ما
اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء
والثابت الذى لا جدال فيه ، أن يزيدا لم يعاقب أحدا من ولاته كبر

أو صغر على شيء مما اقترفوه في فاجعة كربلاء ، وإن سياسته في دولته بعد ذلك كانت هي سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث في كربلاء . فاستباحة المدينة - دار النبي عليه السلام - وتحكيم مسلم ابن عقبة في رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على تقيض تديره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمررون الناس بلعن على والحسين وآلهما على المنابر في أرجاء الدولة الإسلامية . ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب في رأى لاغيه

ومن أفرط في سوء الظن ، رجع عنده أن عبيد الله بن زياد كان على إذن مستور بكل ما صنع ، ويملى لهم في هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثته الملك في بيته وعقبه . ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل منها ويلقى بتبعاتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله إلى وإلى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه .. فقد كان الزمن الذي انقضى منذ خروج الحسين من مكة إلى نزوله بالطف على الفرات كافيا لبلوغ الخبر إلى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضروري في هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة ، فإن لم يكن الأمر تدييرا متفقا عليه فهو المساءة التي تلى ذلك التدير في السوء والشناعة . وهي مساءة التهاون الذي لا تستقيم على مثله شؤون دولة . وقد روى ابن شريح الشكري أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلى الحسين فانه أشار إلى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نجه ..

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب إلى الظن بإعمازه وتديره .. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى جبل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وانه ربما ارتاح في سريره بادئ الأمر إلى فعلة ابن زياد

وأعوائه .. ولكنه ما عثم أن رأى بوارد العواقب توشك أن تطبق عليه
بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد الى
المحاسبة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن في يقظته على هذا
معتصما بالحكمة والسداد ..

ولقد رأى البوارد منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذبوع الخبر
في بيته قبل عاصمة ملكه .. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه
مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية
فكان يقول اذا سئل : « بكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى
هاشم » ..

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوارد ثم يجهل انها
ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن نهون جريرتها في الحاضر
القريب ولا في الآتى البعيد ..

والواقع انها قد استتبعت بعدها جرائم شتى لا جريرة واحدة ، وما
تنقض جرائمها الى اليوم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة في ثورة حتى جارف يقتلع السدود
ويخترق الحدود .. لأنهم حملوا اليها خبر الحسين محمل التشهير
والشماتة . وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين سمع أصوات البكاء
والصراخ من بيوت آل النبی ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجب نساء بنى زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرتب

وكانت بنت عقيل بن أبى طالب تخرج في نساءها حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون ان قال النبی لكم :

ماذا فعلتم .. وأتمم آخر الأمم ؟

بمترتى ، وبأهلى ، بعد مفتقدى ..

منهم اسارى ، ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم

أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فكان الأمويون يجيئون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو
ابن سعيد : « ناعية كناعية عثمان »
ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان
وهو يذود عنه ويجتهد في سقيه وسقى آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء
لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم في تلفيق « المظاهرات
الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين
وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع
الولاء المقتضب ليزيد . فحملوا الى دمشق وفدا من أشرف المدينة لم
يلبثوا أن عادوا اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا
يقولون لأهل المدينة : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب
الخم ، ويضرب بالطناير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ،
ويسمر عنده الخراب »

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه
وزهده : « لو لم أجد الا بنى هؤلاء — وكان له ثمانية بنين — لجاهدت
بهم . وقد أعطاني وما قبلت عطاءه الا لأتقوى به »

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة ، فأخرج
المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا
خلعهم للبيعة ..

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى
قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم اثمة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته
وبدا في ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبدة
كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجلا لا يقل في لؤمه وغله وسوء دخلته ،
وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ،

وهو مسلم بن عقبة المري . فأمره أن يسوم التائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام ان لم ييادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذي سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التي انتظر فيها طاعتهم « انهم يبيعون أمير المؤمنين على انهم خول له يحكم في دماهم وأموالهم ما شاء »

واذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح في الظلم من استباحة الأرواح والأعراض في جوار قبر النبي عليه السلام .. فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضعينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقي على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذي أبلاه ، ولم يبل ما في طويته من رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الأقدام في الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار »

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » .. ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ باثارة الآمال والمخاوف في نفوس صرعاة قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هتش له وتلقاه بما يطعمه ، ثم سأله : « أعطشت يا معقل ؟ .. حوصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين » .. فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا .. وأمر بضرب عنقه .. »

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة . وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ..

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله .. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نساء من نساء الأمصار ومعها صبي لها . فقال : « هل من مال ؟ » قالت : « لا .. والله ما تركوا لنا شيئا »

قال : « والله لتخرجن الى شيئا أو لأقتلنك وصييك هذا »
فقلت له : « ويحك .. انه ولد ابن أبى كبشة الانصارى صاحب
رسول الله » . فأخذ برجل الصبي والثدى فى فمه ، فجذبه من حجرها
فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض
وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك
الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات ...
وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه الى مكة بهم بأن يعيد بها ما
بدأ بالمدينة .. فدفن فى الطريق وتعبه بعض الموتورين من أهل المدينة
فنبشوا قبره وأحرقوه

جريمة العدل

ولم تنقضى سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى
نجه ، ونجمت بالكوفة جريمة العدل التى حاقت بكل من مد يدا الى
الحسين وذويه ..
فسلط الله على قاتلى الحسين كفؤا لهم فى النعمة والتكال يقلل حديدتهم
بحديدهم ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه . وهو المختار بن أبى عبيد
الثقفى داعية التوايين من طلاب ثار الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن
يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا
يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مزال القبر فى العراء ..
فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر بن ذى
الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولى بن يزيد ، ولا أحد ممن
أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى
أو الأحياء ..

وبالغ فى النعمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهارين ،
وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله .. فقتل عبيد الله
وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلائه للكلاب ، ومات
مئات من رؤسائهم بهذه المثلث والألوف من جندهم وأتباعهم مفرقين فى

النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاة .. فكان بلاؤهم بالمختار
عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآئين سلمت من اللوم أو بلغت
من العذر ما بلغت قسوة المختار

ولحقت الجريمة الثالثة بأعقاب الجريمة الثانية فى مدى سنوات
معدودات ..

فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية الى أيام عبد الملك بن
مروان ، وكان أخرج الفريقين من سبق الى أخرج العمليين . وأخرج
العمليين ذاك الذى دفع اليه - أو اندفع اليه - الحجاج عامل عبد الملك ..
فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدهما
وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية .. فقد كان قائده الذى
خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق
وتصدى لها بالهدم والاحراق ..

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بنى أمية ،
وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه فى دولة بنى العباس .. فعموا بنقمتهم
الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون
بالرحمة فتكات المختار بن أبى عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على
بال هاشم وأمىة يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى
ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين
والمنازعين .. فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشيء كما انتصروا
عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضارين حقبة ، حتى ذهبوا بها
مضرويين الى آخر الزمان

وتلك جريمة يوم واحد هو يوم كربلاء .. فإذا بالدولة العريضة تذهب
فى عمر رجل واحد مديد الأيام ، وإذا بالغالب فى يوم كربلاء أخسر من
المغلوب اذا وضعت الأعمار المنزوعة فى الكفتين

من الظَّالِم؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..
وأثقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة ، ويجزى
المسيء بالاحسان ..
وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة
للشريعة والدين ..
والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقى فيها كل هذه المقاصد
الرفيعة .. فإذا بطل الجزاء الحق فنى بطلانه الاخلال كل الاخلال بمعنى
التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة
بالعبث وعلى العقل الانساني بالتشويه والخسار
والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانساني كرامة
لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا
للبرص يرتاح الى تحقيقه ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو
عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كره
ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التي تزرى بكرامة
العقل الانساني ، كاستهدافه لها وهو في مصطدم التضحية والمنافع ، أو
في الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..
ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شيء
وانهزم ، وهو في الحقيقة غانم ظافر
ويبدو لنا أنه قد ربح كل شيء واتصر وهو في الحقيقة خاسر مهزوم ..
ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه
المدخل الذى يفضى الى الجزاء الحق والنتيجة الحققة ، وينتهى بكل عامل
أفلح أو أخفق في ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسعاه في الأمد الطويل

وقد ظفر التاريخ في الصراع بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التي تناح لتمحيص الجزاء الحق في أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تناح في أخبار الأمم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ، وفي تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ..

فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان.. وحسين في ذلك اليوم هو المخذول الذي لم يطمح خاذله من وراء الظفر به الى مزيد ..

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ..
ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..
وهذا الذي فصدنا الى تبينه وجلائه بتسطير هذه الفصول

وما من عبرة أولى من هذه بالتبين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد في أطوار هذا الوجود
ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والمآرب الأرضية ، فان لهذا الصراع لألوانا متعددة ولا تتكرر على هذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها في طرفي الخصومة بين الرجلين ، وأشواطا لم تتخذ الطريق الذي اتخذته هذه الخصومة في البداية أو النهاية

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهي ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاوزا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاوزان فيما يلي من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بن سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق.
التصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه
بمعيار لا غبن فيه ..

فإذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه
وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص
والثناء الرفيع ..

وإذا خسر أحد حياته في سبيل إيمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ،
ولا ينكب فوق ذلك بخسارة في السمعة والعطف والثناء

فلو جاز هذا لكان العطف الانساني أزيف ما عرفناه في هذه الدنيا
من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف في
العروض الأخرى الا وهو ينطلى يوما وينكشف بقية الأيام ..

وإذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع
والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان
وإذا كانت خسارة المرء في سبيل إيمانه تجمع عليه كل خسارة ،
فالأحقق الفاضل من يطلب الخير للناس ويقفل عن نفسه في طلابه
فكفى الواصل ما وصل اليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الانسانية من
الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون
وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين وزيد ..

فإذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل
ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التي يشتري بها الأيدي
والسيوف ، فجال بها جولة رابحة في كفاح الضمائر والقلوب

فينبغي ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغي أن يقف به
الربح عند ذاك ، وينبغي للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبوا على
الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا

أجورهم ، فينبغى أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقه
أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شئ غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح في الموازنة بينه وبين الحسين ..
كل أخطائه ثابتة عليه — ومنها بل كلها — خطؤه في حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..
وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله ..
وكانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها مغتصبا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه في الفضل والكرامة جزافا لا حسيب عليه

وتسديد العطف الانساني هنا فرض من أقدم الفروض على الناظرين في سير الغابرين ، لأن العطف الانساني هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود ..

واننا لندع الخطأ في سياسة النفعين ، وننظر اليهم كأنهم مصيبون في السياسة بصراء بمواقع التدبير

فعلى هذه الصفة - لو تمت لهم - لا يحق لخادم زمانه أن ينزع الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التي تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم في عطف الأسلاف والأخلاف خطأ في الشعور ، وخطأ كذلك في التفكير ..

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتى وتكثر حيناً وتندر في غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل التي لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وانما تحرف عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها . وأكثر ما تأتى هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة في الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة محبة الى الناس عامة ، أو من الافراط في حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادة استهواً لتكاليفها واستعظاماً للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعف ويستحق المذمة واللوم في رأى ضميره . وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وقتور .. وجنح الى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلقة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لأنها تعرضهم للخطأ

في الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ في العطف والشعور
ومن المعقنين على تاريخ هذه الفترة عندنا - في العربية - مؤرخ يتخذ
منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر الى الاستشهاد كراهة
للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضري صاحب تاريخ
الأمم الاسلامية رحمه الله ..

ففى تعقيبه على ثورة المدينة التى قدمنا الاشارة اليها يقول : « ان
الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة
فى قيامهم وحدهم بخلق خليفة فى امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما
لا يمكنهم أن يفتقوا فى وجهه . ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد
خلق يزيد ؟.. أيتكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية ، لهم خليفة
منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟ وكيف يكون
هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد
من الجنود الاسلامية ؟.. انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء
عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش
أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة .. فانه كان من الممكن أن يأخذهم
بالحصار .. »

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه
أعدارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة . لأنه يفهم كيف يغضب المرء
لما فى حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيره العقيدة عن
الاحتمال ..

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ،
لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ،
واستبعادها حيث هى بعيدة عن التقدير

فلم يحدث قط فى مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شمر

الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومسئيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاره انه لم يحدث من قبل في حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التي تواجه الدول المكروهة لا تنتظر — ولا يمكن أن تنتظر — حتى تربي قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة التي تكرهها من قوة وعدة ..

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يها به الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقتناع وضيق الذرع بالأمر . ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عن كان في غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحق الى تخبط أغلظ منه وأحق .. فلا هم يقفون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف في بطشه وجبروته ، حتى تغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليف أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذي لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

وصل الأمر في عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحا ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحا . وهو — بالبداية التي لا تحتاج الى مقابلة طويلة — منحى غير محى الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى الى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فانه لو اوجد في نهاية المطاف أن دفتر التجار لن

يكتب الربح آخرها الا في صفحة الشهداء

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفائمة فتظفر في نهاية مطافها بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون في أول الشوط ثم ينهزمون في وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فاذا هم بكل ميزان خاسرون .. وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ..

ولكن يزيد ذهب الى سييله وعوقب أنصاره في الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه في عمر رجل واحد لم يجاوز الستين ..

وانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التي قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس في حلة من النور تخشع لها الأبصار ..

وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بنى الانسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث

أبو الشهداء

فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين. عدة وقدرة وذكره .. وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين ..

وأيسر شيء على الضعفاء الهالزين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه ..

فهؤلاء واهمون ضالون مفرقون في الوهم والضلال ..

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيدا
قديسا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة ..
وانما هو طلب وطلب ، وانما هي غاية وغاية ، وانما المعول في هذا
الأمر على الطلب لا على المطلوب
فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين
العصب والحق ، بين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ،
فقى سبيل الدنيا يعمل لا في سبيل الشهادة
ومن طلب الملك وأباه بالثمن المغيب ، وطلب الملك حقا ولم يطلبه لأنه
شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب
الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك
دفعاً للمظلمة وجلباً للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس
ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذى يلبي داعى
المروءة والأريحية ويطيع وحى الايمان والعقيدة ويضرب للناس مثلاً
يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ..
ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق في أمثال هذا الصراع
بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..
وهى ان الشهادة خصم ضعيف مغلوب في اليوم والأسبوع والعالم ..
ولكنها أقوى الخصوم الغالبين في الجيل والأجيال ومدى الأيام ..
وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت إليها بعين الأرض أو بعين السماء
على أن تنتظر إليها في نهاية المطاف
ونهاية المطاف هى التى يدخلها « نوع الانسان » فى حسابه ويوشج
عليها وشائج عظمه واعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث فى اليوم ،
ولا ينظر الى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى
الخلود ..

عاشق الجمال

إذا لحقت السيرة بعالم المثال الذي يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى في عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة .. فإذا تعلقت القرينة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهي بين يديها وتقبل على الألم وهي ناظرة إليه ، وتلتزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتتقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عدل عادل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالي ما يلقاه في سبيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال في كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيماً لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وإنما اتجهوا اليهم صوراً مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعذبون من أجْلِها ما يصيبهم من ملام وإيلاف

وفي معنى كهذا المعنى يقول الكميّ شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقاً الى البيض أطرب
ولا لباً منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل
ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا آفا من زجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية
 أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)
 ولكن الى أهل الفضائل والنهى
 وخير بنى حواء . والخير يطلب
 الى نفر البسيض الذين بحبهم
 الى الله فيما نالني أتقرب
 بنى هاشم ، رهط النبي . فأتني
 بهم ولهم أرضى مرارا وأعضب
 خففت نهم منى جناحي مودة
 الى كنف عطفاه أهل ومرحب
 يشيرون بالأيدى الى وقولهم
 ألا خاب هذا ، والشيرون أخيب
 فطائفة قد كهرتني بحبكم
 وطائفة قالوا : مئى ومذنب
 فما ساءنى تكفير هاتيك منهم
 ولا عيب هاتيك التى هى أعيب
 يعيبوتنى من خبهم وضلالهم
 على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
 وقالوا : تراى (٢) هواه ورأيه
 بذلك أدعى فيهم وألقب
 على ذاك اجراى ، فيكم ضربتى
 ولو جمعوا طرا على وأجلبوا
 وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
 وينصب لى فى الأبعدين فأنصب

(١) السانح : الطير الذى يمر من البارالى اليين وعنه البلح ، والاعضب :
 المكسور
 (٢) من كنى على إن ابى طالب « أبو تراب » وتراى نسبة اليه

وقد مرّ بنا حديث زين العابدين رضى الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه »

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص الى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه . وانه جالس على كرسيه ينتظر انقضاء الناس اذا بزىن العابدين يقبل الى الحجر الأسود في وقاره وهيبته ، فيتحنى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة ! »

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتناول الى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » .. ويقتضب الجواب

وهذا الذى تصدى له شاعر آخر . قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله فى كلمتين عابرتين ..

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى التقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
يجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت ، والعجم

إذا رآته قرش قال قائلها :
الى مكارم هذا ينتهى الكرم
من معشر جهم دين ، وبغضهم
كفر* ، وقربهم منجى ومعتصم

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمر مكة - خالد بن عبيد الله - فلعنه
وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليا وحسينا فى خطبه ، وأنشد :
لعن الله من يسب عليا وحسينا من سوقة وامام
أيسب المطهرون جدودا والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأمن آل الرسول عند المقام
طببت بيتا وطاب أهلك أهلا أهل بيت النبی والاسلام
رحمة الله والسلام عليه كلما قام قائم بسلام

وتنقضى السنون وتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه
أحد ، ولم ينزئه أحدا من المجزئين له أو المقترين عليه عن استحقاق
الهجاء .. فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم
ستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون »
هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعي الذى يهز أوتار النفوس بأمثال
هذه الأبيات فى آل البيت :

مـدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزى وحى مقفر العرصات ! ..
لآل رسول الله بلخيف من منى
وبالركن والتعرف والحجرات
ديار على ، والحسين ، وجعفر
وحمزة ، والسجاد ذى الثفتات (١)

(١) كان على بن الحسين يلقب بذي الثفتات لانجهته أصبحت كثفة البعر - أى ركبته -
من كثرة السجود

ديار غيباها كل جون مبادر
ولم تعف للأيام والسنوات
الى أن يقول :

ملاك في أهل النبي فانهم
أجباى ما عاشوا وأهل ثقاتي
فيارب زدنى من يقينى بصيرة
وزد جهم يارب في حسناتي
أحب قصي الرحم من أجمل جهم
وأهجر فيهم أسرتي وبناتي
لقد حفت الأيام حولي بشرها
واني لأرجو الأمن بعد وفاتي
ألم تر أنى من ثلاثين حجة
أروح وأغمدو دائم الحشرات
أرى فيهم في غيرهم متقسما
وأيدىهم من فيئهم صنفات
قال رسول الله تحف جصومهم
وآل زياد حفيل القصرات (١)
بنات زياد في القصور مصونة
وآل رسول الله في القلوات ! ..
إذا وتروا مدوا الى أهل وترهم
أكفا عن الأوتار منقبضات ! ..

ووهب على بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة
باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين ألف درهم
ليبيعهم الخلعة ففطن بها . ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها منه عنوة

(١) القمرة الرقة ، وحفل القصرات أى علاث الرقاب من السير

تبركا وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض
الا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه في كفته ، وتقسموا الخلعة بينهم
فخورين بها غير مباليين ما بذلوه في ثمنها

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العريضة بشاعر آخر أفحل من
دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح

ذلك هو أبو العباس على بن الرومي الذي نسي مدحيه من آل
طاهر وبنى العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد . ولو
كلفه ذكره القتل والحرمان

وفي بعض ما ساقه من النذر لأمرأ زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل
بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لئن صدقتم أن حالة
تدوم لكم ، والدهر لوان ، أخرج
لعل لهم في منطوى الغيب ثائرا
سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته
له زجل ينفي الوحوش وهزمج (١)
يود الذي لاقوه أن سـلـاحه
هنالك خلخال عليه ودملج
فيدرك ثار الله أنصار دينه
و لله أوس آخرون وخزرج
ويقضى امام الحق فيكم قضاء
ميننا ، وما كل الحوامل تخذج

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى في مواطن شتى من عمله وقوله ولا
ينساها في حق الشهداء من آل الحسين وصحبه .. لأنه يحس الجمال
احساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التي يحلم

(١) الهزجة اختلاط الصوت ، والجر الجيش الكبير

عباس محمود
العقائد

فاطمة الزهراءُ والفاطميون
أهل البيت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تمهيد

ترد الإشارة الى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الاسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا في الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد اخوالى في تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره



وفتحت أذنى كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله ، فمولد النبي حفلة سنوية في البيت تترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وابراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والظاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عمّ النبي لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى . لأنتى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوباً الى اسم « محمود » وهو كذلك من أسماء النبي ،

ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة
واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة
الشريفة ..

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس
هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنة
النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ،
فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام

استفدت منه اننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى
السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق ، أو انكار فضل ، أو
انكار نسب ، أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل
البيت النبوى من بعيد أو قريب ..

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن
قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس
تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى
البكرة عصمنى بحمد الله من غوائل هذا الصغار ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى لم أصدق ما كان فى حكم انواق
المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها
بحث الاشاعات ولم أعطاها من بادىء الرأى شأنا أكبر من الاشاعات التى
تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب
المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام
الآخرين ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى قاربت سير العظماء الاسلاميين
و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أَرْضى بها عاطفة لا أستمَد
من ذهنى شواهدا وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة

تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام وهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام في حياة الزهراء ، فانها - سلام الله عليها - قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ، ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير

وهذا الذي قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المتسمين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التي حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكنني أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها ونعود الى الوراة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية في نفس الزهراء ، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هي ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث

فاطمة الزهراء

- * أم الزهراء ..
- * نشأتها ..
- * زواجها ...
- * بلاغتها ...
- * في الحياة العامة ..
- * شخصية الزهراء ..
- * الذرية الفاطمية ..

أمُّ الزَّهْرَاءِ

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء - رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه بنينا من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدنا الاقاضة في الأخبار الا في التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم للعواطف الأثرية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الإيمان ..

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما في الحكمة والدراية أو في الشجاعة والشمم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤي بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة ، فهي فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤي بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنسبة الى زوجة نبي ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبعاً الآخر حين أراد أن يحتل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يهرب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه ، وقال السهيلي فى الروض الأثف : « ان تبعاً روع فى منامه ترويعاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومراه وهو ينذر العاهل بالفضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعل له بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة ، وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل

سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان ..
وقد روى عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد
إليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسي ! » فكان كلامها الذي أرادت
أن تسرني به عنه وثبتت به جناحه آية على العلم بلباب الدين علما يستكثر
على الناشئين في أديان الجاهلية ، فإن الدين لا يعدو أن يكون عندهم
كهانة وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين مالا يدركه عامة قومها ،
فعلمت انه فضيلة وان النبي الجدير أن يندب له هو الرجل الذي اتسم
بالفضيلة ، وقالت للنبي وقد آمنت انه وحي وليس بعارض من عوارض
الجنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل
الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ،
وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

علامات للنبوّة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من
أبناء عمومتهما من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتھا
لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم
وهي على هذا طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة الى السماع
والتقليد ، فمما قل عنها انها طلبت الى النبي عليه السلام أن يخبرها اذا
جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذي اليسرى »
ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى
فخذي اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها
وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ،
فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة في عصرها أن تمتحن به
حقيقة الوحي . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم في العصر
الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحي الديني والنظر الى جسد الأثني
في وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

موجب اذ لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هذه الأحاديث
وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق
الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل ، وصدق من قال ان السعادة
لا تتم ، فان هذه السيدة التي تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة
السعادة في حياتها الزوجية ، فانها تزوجت في صباها برجل من هامات
مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سُمّي باسم هند
(لعله دفعا لأذى الحسد) وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في
جيش الامام في وقعة الجبل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف
للنبي رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبيد الله المخزومي ، واختلقوا في أى
زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يكتب له الدوام ، وقد
أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل
الذي أصبحت بفضلها علما من أعلام النساء في التاريخ ، ولا شيء أدل على
رجاحة لبثها من أقاتها في اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع
الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبي عليه السلام بالعمل في تجارتها فتكاد الأقوال
تتفق على انه كان بمشورة من عمه أبي طالب ، وان أبا طالب قال له في
سنة من السنين : « يا ابن أخى . أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا
الزمان ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت
خويلد تبث رجالا من قومك في غيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها
لأسرعت اليك » . وقد تردد النبي في مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها
أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد
بغيبض لاجبنائك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبي الى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت
تربح في كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامها
ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليشرها بمودة القافلة ووفرة كسبها ،

فأكبرت منه مروءته وأماته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرضت له بذلك في حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح ..

وأحجم النبي حياء وأحجبت هي عن التصريح ، ثم أوعزت الى صديقة لها - هي نفيسة بنت منية - أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنك أن تزوج ؟ » قال : « قللة المال » . قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبي فاخطبيها »

وروى الزهري صاحب أقدم السير ان « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة - هي الكاهنة - فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت : ولم ؟ فوالله ما في فريش امرأة - وان كانت خديجة - الا تراك كفوًا لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون - بين الروايات المتعددة - ان النبي عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفتاح عمها في الأمر : « .. ان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة ابن نوفل في رواية أخرى : « هو الفحل الذي لا يقدر أنفه » . وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها في حياتها الى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبي جميع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال

وكان النبي عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت في الأربعين أو في الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت في الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » . وأخرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات الى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء في بعض الروايات انهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا ان مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطأئنة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجهما من أبي هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتهما منهما يبدو ان أيامهما معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. »

وأما ما ألف مصداق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين عليّة القوم ، وهو من تلك العلية في الذؤابة العليا ولقد عزت الهناء الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية ، فتأيمت في نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكرامة معشر تصغره يبيض سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهناء الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عن يتجر

لها ويؤمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، وكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد ..

أيضا كان خيرا ؟ ..

هذا الذي كان كما كان ، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟ !

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التي جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارئ لم يدخل لهما في حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التي جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهذا عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حيلته التي سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء التي تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفو لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضاتها لبشائر النبوة في ملعتها - لضمن لها أن تبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين ..

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقد ما ويتفقد مواطن ذكرها أعواما بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وان وفاء كهذا هو وحده كفاية المستقصى في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانساة هي أصدق من دوام الوفاء لها في قلب انسان عظيم

نشأتها

إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تفنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت في دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بممارها وققارها ، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التي كانت يومئذ تختج في صدر واحد ، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهيمنة بين الأبرار ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه ، وهي لم تفتح عينها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهي تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسا للألفة والغربة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكثر الظن أنه ينشأ منظويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون .. ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبويها ،

لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنّها ، وغير أخيها هند ،
وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب
البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن
ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صفارا وخلقوا في
نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريرا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء
من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختين ،
لأنهما خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدوا للأبوين
يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جداً من كل جانب تركن اليه ، وانطواء على النفس لا تستغربه
ولا تحب أن تبدله ، وملاذها في كل هذا حنان أبوين لا كالأباء : حنان
جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى
مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنا
وتهض به زمنا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبال ، وتشملها
به الأم التى جاوزت الأربعين وبقيت لها فى خدرها هذه البنية الدارجة
صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها
بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قليز كبيرين : حنان أخرى به أن
يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة : آيات
من القرآن وعادات يأبأها من حولهم العابدون وغير العابدین
ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات فى حاضرة
الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمد
جراح أيها فى غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها
عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم

تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها ، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال ..

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن مجئها للصدیق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعت من علي ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المرقاة

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع المسنين انها سلية شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا يداني ، وشيت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثماناً يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف ، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هي راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر في نشأة الزهراء ، فانها نشأت في مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها

زَوَاجُهَا

قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية : « أن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبي : خمساً وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سئلتني عن أمي وسل الكلبي عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية بضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة ومن جملة الأخبار يتضح أن النبي عليه السلام كان يلقبها لعلی رضي الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال أنها صغيرة كما جاء في سنن النسائي

وفي أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا علي ! » فقال علي : « مالي من شيء إلا درعي أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكّت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً »

وفي رواية أن علياً لما سأله النبي : « هل عندك من شيء ؟ » قال : « كلا . فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أي التي تحطم السيوف ، وكان النبي قد أهداه إياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء في أنساب الأشراف للبلاذري : « فباع بعيراً له ومتاعاً فبلغ من ذلك

أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب وثلثها في المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى علي^ه نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله مالى شيء ، ثم ذكرت صلته وعائذته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شيء ؟ » قلت : « لا » قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندي ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا على ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما أليت أن أزوجك خير أهلى » وجهزت وماكان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من آدم حشوها ليف ونورة من ادم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدر ورحاءان وجريتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لا حقا وأمرنا متفرضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ريك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من علي^ه وأشهدكم أنى

زوجة فاطمة من علي ، على أربعمئة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

قال أنس : « وكان علي عليه السلام غائبا في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : اتبهوا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل على قتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا علي ! ان الله أمرني أن أزوجه فاطمة ، واني زوجتكها على أربعمئة مثقال فضة ، فقال علي : رضيت يا رسول الله ! ثم ان عليا خروا ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت في زواجها على عادة النبي عليه السلام في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سككت أمضى الزواج ، وان تقرت الستر علم أنها تأباه ، وفي زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك . فسككت ، وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت في نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها بضع سنوات ..

توخينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الاخبار وصل إلينا في كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن

خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والاباء والرضى والانتكار ، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأخرى أن يصدر ممن أسند اليهم القول أو ثسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبي عليا بغاطمة وهما ربيبان في بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجهما من علي* على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد علي في خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده مالا بد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين في مكة — قبل الهجرة الى المدينة — لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من أرجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لمبرتين كأهم المبر في كتابة التاريخ : كتابته في الأزمنة الغابرة ، وكتابته في الزمن الحديث

فأهم المبر التي تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد

ذوو الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكما قاطعا في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للاجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين يبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة في تاريخنا المصري فمرجمها الى كتابة طائفة من المصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير فمن هؤلاء من بطالغ في الكتب الدينية التي يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لا شك في أنها من العيوب فلا يحسبها عيوباً ، ولا يتأقف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب ان لم يجد ما يعيبه في ظاهر السطور والحروف

وما من شيء يمسح الدين ويمسح العلم معا كما يمسحهما هذا الخلق الذميمة ، فان الدين لا يعلم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتمدد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي

مكتشفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مرء

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء»
الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول
فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب
عليه ..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زما فى الشرق -
كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك « العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن
العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسفاف ، وكم فى الاسفاف من
عيوب ، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة
لم تزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق
أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لما عرض عليها النبی الزواج
من على سكنت هنية ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها
خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير ..!

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا
انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية .. !
لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من
عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتترأى للمؤلف حيثما نظر حوله
ولكنه لا يجب أن يراها ، لأنه يجب أن يرى مايعيب ولا يجب أن يرى
مالا عيب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وإن أخواتها
تزوجن من ذوى غنى وجاء ، كآبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان
وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ؛ وأن
تحرمه احدى البنات ..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية
فى ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد

الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلاحاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبی الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجيالات ..

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبی يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه ..

كل ذلك قرب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت اليها لأنها لا تعيب ، والسبب الخفى البعيد تشويهه غضاضة ، فهو الجدير اذن بالالتفات وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكايه من فقر على بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف ، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلی فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لأنها لم تكذب تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المؤلف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومها الفقراء ، وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمؤلف ولا بالتطبيق العلمى ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مؤلف

والبلاذرى — بعد — لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شيء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايته للحديث بسنده وهو : « حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق

عن حبشي بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال : اسكتي ! فقد زوجتك سيدا في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » ..

وهذا ما وجدناه في النسخة المنقولة من مخطوطة الاستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة في أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف ! ..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبثرته النافعة في وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا تنبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرقتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا تنبه اليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفتري على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعاقره أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات في آل محمد وآل علي ، فلم نجد في عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذي قيل فيه أن السيدة فاطمة أشارت الى فقر علي حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم ..
وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء في أسد الغابة عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أنه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخوها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبي بنفسك مالا عظيما لتصيينه » ، فوالله ما قاما حتى طلع علي يتكىء عنى عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة وأثرتكم على سائر ولدي

لكائنكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا . فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعله بيدى . فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد ان انظر فى أمر نفسى . فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك . ماهو الا رأى هذين ! ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذا بشيابه فقالا : اجلس يا أبه ، فوالله ما على هجرتك من صبر . اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لعلام ، وبعت لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحيية بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهن - تنتهى بطاعة الحب للاب الذى لا يصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلايتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم ومارواه الرواة عن أمها البتول

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الاشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبی عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا تخيل فتاة فى مثل موقفها لا ييكها ماثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والطاقها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمها فيه ومن البلد الذى يحتويه فان جهدنا أن تخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقرب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف ابيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن تخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ..

ومثل النبي الذي كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان أبا
مكجوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه
الا عامدا عالما بما يلعبه في النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة
الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاء لها ما قاله عليه السلام : « مالك
تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم
سلما » ..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التي أطالت بقاء
فاطمة في بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها
ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام
حتى ذهب اليها فقال لها : اني أريد أن أحولك الى . فقالت : فكلم
حارثة بن النعمان أن يتحول عني . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن
النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي
فقال : يا رسول الله ! انه بلغني انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلتي ،
وهي أسقب بيوت بني النجار بك ، وانما أنا ومالي لله ولرسوله ، والله
يا رسول الله للمال الذي تأخذ مني أحب الي من الذي تدع . فقال رسول
الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء في كتاب السهمودي عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة
رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه
وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضي الله عنها ، فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم
خبرهم ، وان فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي ان ابني أمسيا عليين فلو
نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشتري لهم أدما
وجاء به الى فاطمة ، فاستصبت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم في
جوف الليل - وذكر كلاما وقع بينهما - فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي
صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم

كان يأتي باب علي وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بمضادتي الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتي بيوت نسائه « وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أبقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .. فنزعت قرطيهما وقلادتهما ومسكتيهما ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »

وانتظمت الحياة في السكن الجديد الذي أوى الى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق علي من وظيفة الجندي ، ووظيفته من فيء الجهاد ، وقد كان قليلا في حياة النبي وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب علي منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران

نصيبا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب
وأم كلثوم ..

وكان أسعد مايسعدان به عطف الأب الأكبر الذي كان يواليهم به
جبيعا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام في محتدم الدعوة
والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به
أن تصبح تاريخا محفوظا في الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماء والداه حربا فجاء رسول الله فقال : أروني ابني
ما سميتوه ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد
الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير
وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهده وهو يعلو بقدمه
الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي ، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب
صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان ..
حَرْقَه (١) .. حَرْقَه .. ترقه .. ترق عين بقرته

وربما شوهده النبي عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الاطفال راكب
على كتفيه ، فينأثي في صلاته ويطل السجدة لكيلا يزعجه عن مركبه ،
وفي احدى هذه السجعات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم
المطية مطيتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتمثران ،
فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق
الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »
وكان اذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا !
الطفل ؟ .. ألا تعلمين ان بكاءه يؤذيني ؟ » ..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويتولى خدمة
الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففي احدى هذه الليالي سمع الحسن
يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها في القدح ، ثم

(١) الحرق : التعمير

جمل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كانه
أحب اليك ؟ . قال : انما استسقى أولا !
وقد يلقيهم جميعا في برد واحد فيقول لهم : « أنا وأتم يوم القيامة
في مكان واحد ! » ..
وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ،
فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :
وابأبى شبه النبي لست شبيها بعلي
وكانوا يتغايزون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب
لايمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف في قلوب كبار ،
ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء
ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف
وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكّا على ، وربما أخذت
فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هي بشدة ، فما كان رجل مثل علي
ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . انما
هو اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ، وانما هو الحنان
الذي تعودته من أبيها فلا تستريح الى مادونه ، وكل حنان بعد حنان
ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده
فلا يجد نظيره في قلب انسان ..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف ، وربما ترك مجلسه
بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع مابينهما من جفاء .
والصحابة الذين يتبعون في وجه النبي كل خالجة من خوالج نفسه ،
ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لايملك من ضميره ما يرضى به على المتعلم
والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه
منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب

الناس الى ! » ..

ومرة من هذه المرات ، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين «
ونمى الى فاطمة أن عليا يهمل بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت.
الى أبيها باكية تقول : « يزعمون أنك لاتغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها في نفس أبيها الذي ما زعمت هي قط انه يرضى بما
يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنه في
تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على
ملا من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى في أن
يتكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. انما
فاطمة بضعة منى يثرينى ما رابها .. »

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء في رواياتها المختلفة ،
ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبی وحفظت عنه ، فلعلها
قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من
هم في المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى
قرباتها ، أو لعلها غصبة من غضبات علئى على أثمة من أثقات فاطمة ، أو
لعلها نازعة من فوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأبأها ، وان
أبأها العرف في حالة المودة والصفاء

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا
اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية
النبي .. وهى وأبنائها كل ذرية النبي الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها
العمر فلحقت بالنبي صلوات الله عليه بعد وفاته بيضعة أشهر ، وكان على
قد عاهد نفسه لا يغضبها وقد غابت عنها عين أبيها ، فلم يغضبها بعد ذلك
حتى في أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

بَلَاغُهَا

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب بلاغات النساء :
« ... لما أجمع أبوبكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها تطلا ذبولها ماتخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنه أجش القوم لها بالبكاء وارتج انجلس فأمهلت حتى سكن تشيع القوم وهدأت فورتهم فافتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون نساءكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرشى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢) وتقتاتون القد أدلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي وبعد ما مثنى بيهم الرجال وذو بان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا قارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال

(١) النجى (يسكن الجيم وتحريكها الطريق الوعر) يمانية ١
(٢) الطريق : الله المطروق

وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها فلا ينكفى حتى يظا
صماخها باخمصه ويخمد لهيها بسيفه مكشودا في ذات الله قريبا من رسول
الله ، سيدا في أولياء الله ، وأتم في بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختار
الله لنبيه في دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم
الغاوين ونبع خامل الآفلين وهدر فنيق (١) البطلين فخطر في عرصاتكم
وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارحا بكم ، فوجدكم للدعائه
مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحشسكم
فألفاكم غضا با ، فوسستم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شريككم ، هذا والمهد
قريب والكلم رحيب والجرح لما ينمل ... »

الى أن قالت : « وأتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية
تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة
أأبتر ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا
قريبا ، فدوئكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله
والزعيم محمد والموعود القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ
مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبشة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة
في لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروایتين قال أبو الفضل :
« ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب
صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء - يشير

(١) الجمل القوى

الى قوم في زمانه يفضون من قدر آل البيت - يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبي العيناء فقال لى : رأيت متايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثني أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ ..

ونسبت الى السيدة فاطمة آيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس !.. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبر آفاق السماء وكورت

شمس النهار وأظلم العصران

فالأرض من بعد النبی كتيبة

أسفا عليه كثيرة الرجفان

فليكه شرق البلاد وغربها

ولتبكه مضر وكل يمان

وليكه الطود المعظم جوده

والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضوءه

صلى عليك منزل القرآن

ووقفت على قبر النبی وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عيناها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شمم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا
وقالت على قبره أيضا :
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نمت وحالت دونك الكتب
ومضى آثا انها تمثلت بعد خطابها عن فذك بيتين من البحر والقافية
مع تكرار شطر منهما وهما :
قد كان بعدك أنباء وهنبشة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب
وفيها كما يرى القارىء أقواء ، لأن الباء مضمومة في روى البيت
الأول مكسورة في روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محل شطر
في نقل الرواية ..

تقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نجب
أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا
الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال
لا سند له ، يسلكه جميع المخالفين
فيقل الخلاف ولاشك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما ييدر من
اللسان عفو خاطر ، وان قائله يعده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع
الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

ويقول الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه ، فإن حفظه فانما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه فاذا قل الخلاف في هذا فعلم اذن يكثر الخلاف ؟
أترأه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدّها في خلدها ؟
ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه
لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشائثيه ، وسمعت القرآن يرتل في الصلوات وفي سائر الأوقات ، وتحدث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحاكيها ولا ينطق في أمرها عن الهوى

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشي عن عثمان بن عمرو عن اسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين انها قالت : « مارأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هي واحدة منهن ، بينما هي تبكي اذا هي تضحك . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الى فأخبرني انه ميت فبكيت ، ثم أسر الى اني أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على السنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة ان امرأة في فضلها

واعترازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء في حلمها
ورصاتها . فقيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة اذا
نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد
مطبوعة على مشابته في حديثه ؟ ولماذا تستعظم على زوجة الامام الذي
كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهي مضرب
الأمثال ؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع
الذكاء واللب الراجح ؟

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها
في الشاعرات ان ثبت ، ولا يضرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك
الكبير فيه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو
الشاعرة أن يدير في فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب
الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار
بآيات من القرآن في مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها في
مقام العبرة والرثاء

في الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذي عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفاً عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التي تنفرد بها ولا تجد معينا عليها في كثير من الأيام غير زوجها
ثم توفي النبي صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها في معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها في أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك في تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافاً على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التي أعقبها
ومسألة الخلافة في يوم وفاة النبي إحدى المسائل التي طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأي متفق عليه ، وذلك أن الخطر الأكبر في ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعماء شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبي بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لدى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه في قومه نافراً من البيعة لأبي بكر بعد انعقادها وهو يأبى إلا أن « يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس » ...
ثم أصر على إباطه حين انقض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة ماوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل أخضب سنان رعي » وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول :
اني ضاربكم بسيفي ما ملكته يدي ، مقاتلكم بولدي وأهل بيتي ومن اعنى من قومي.. وأيم الله لو ان الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم

حتى أعرض على ربي »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في مغيبه لو لم يجعل له العاملون بما يقطع دابره ، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحضاً نازها بين علي والعباس وبين بني هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوما بنصرة بني أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، ربما كان من همه أن ينصف بني هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعه التي يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا في خطر تلك الفتنة من سقيفة بني ساعدة ، فأنحسرت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلا بدفن الرسول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم قيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويفضض لدعوته ، حتى هم عمر بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقيل أن تنجح المسعاة من أبي سفيان في خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

وكان علي في تلك الساعة المصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى في حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً : « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عنه العباس : « يا ابن أخي.. هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك وبيايعك معي . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشي ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه علي : « لا والله يا عم !.. اني لأكره أن أبايع من وراء رءاج » .. ولقد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاة من بني هاشم وشيخ

الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها
جميع المسلمين ، وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشتت
بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال
فلا جدال بين المنصفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها
من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما
ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً
لأنفسهم وما قصرُوا بعد يوم البيعة في نصرة دينهم ، وما كان في وسع
أحد أن يبلى أجل من بلأئهم في دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة
ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام في العراق والشام وفارس
ومصر فتحة أعظم وأقرب مما فتحوه

وآمن على³ بحقه في الخلافة ، ولكنه أرادَه حقاً يطلبه الناس ولا يسبقهم
الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون
لأبى بكر وعمر كأنه يعمل في عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبي
عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ،
ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكسحوا لأنفسهم ولا لذويهم ،
ولم يقفوا دون الناية في خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب
في صدقه وصدق طويته وحسن بلأئه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا
نصيب يأسى عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على في الخلافة ، أو ترى أن قرابة
النبي أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على في الجهاد وعلمه المشهود به
يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين
أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا
في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيأيعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على

رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى في تأليب الناس على تقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سمرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التي يبيتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على عليّ ويتحفز للوقعة فصدّه عليّ وعرض له بذكر الغشّة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما رده عليّ ، ويكاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوى بانطواء الكلام في مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فذك » أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..



وخلاصة الحديث في أمر « فذك » انها قرية كان النبي يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خبير !... فقال أبو بكر: « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : انا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .. واني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها » ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه — زكريا — « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلي بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن يبنى وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت ، وأنبأني بما أخذت وتركت »

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال :

يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون . فقالت : ان فذك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فذك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ! قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر : « انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها » . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنحك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لانورث ما تركنا فهو صدقة » . فقالت : « أرايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتعلان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائي وسخطها من سخطي ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فانى أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتاني ، ولئن لقيت النبی لأشكونكما اليه » .

فقال أبو بكر : « أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » ، ثم اتحب بيكى حتى كادت نفسه تزهق ... ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معاتقا حليته مسرورا بأهله وتركتموني وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم . أقبلونى بيعتى »

والحديث فى مسألة فذك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى الى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا وراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وإن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البيئة عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فذك مخافة أن ينفق على من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يقين ، وما تعلم من تركية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فذك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فذك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

ولعلنا نجمل ما قر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فذك بكلمة قالها عدل من أعظم المدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفذك فى يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه الى ذلك داع غير وحى ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « ان فذك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألت فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسألينى وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتية منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ، ثم ولى معاوية فأقطعها

مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد
وسليمان ، فلما ولى الوليد سأله حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان
حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتهما ، وما كان لى من مال أحب الى منها ،
فاشهدوا اننى قد رددتها الى ما كانت عليه »

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على
شؤون بنينا والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول
حقها ووشيجة قرباها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من
فيه ، واحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما
نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب
متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات
النفسية فالهم فيها وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة
السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة إيمان بحقها تثبت عليه
و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب

وفاتها

قلنا في « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تحليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء ، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه

» وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته ، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتقان في مزية أخرى ..



« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالآلوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله ويتقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فإذا أداها في صورة أغفى منها في الصور الأخرى ، أو كأنما

هى مواهب وأرزاق لا يستوفىها الفرد الواحد الا بضمن غال يحسب عليه ،
ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الانحاء
« والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة
لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

» فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا
ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المغمروض عليهم أن
يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

» ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا
اليها ، ولا نبليح بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية
مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى انجزم
أو الى التغليب ..

» فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء
معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام
» وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها
أناث ، أو رزقوا ذرية من الأناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم
يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة ..

» وتواريخ العظماء فى جميع نواحي العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى
جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة
بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ،
ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل
فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة
من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من
عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد
عبدو وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود
سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن تأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم ان اصلاح شؤون النوع الانساني ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع حالة وأعلى قيمة ان لم نجدها في رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتاول الملايين في كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبي الذي يتكفل بتربية الأرواح في أمته ، وفي أم لا يلقاها. في زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا في الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء في زهرة الشباب ، في الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الإناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية في عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمازج لونها شحوب في كثير من الأوقات ، وقد رآها النبي عليه السلام في مرض وفاته فقال لها انها أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به في تلك السن التي تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حيناً بعد حين ، ويعودها النبي يواسيها في مرضها فإذا هو يواسيها كذلك في حاجتها ، زارها يوما وهي مريضة فقال لها : « كيف تجدنيك يا بنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدني انى مالى طعام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية !.. أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوما وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضمن على فاطمة بما يملك من الانفال ،
فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ،
ولكنها كانت فاقّة تعمهم جميعا حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم ، وقد
سكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا
وزيتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !
الله أكبر ! ..

مثل محمد يعلو على اشتاق المشفقين ، ومن كان في قدرته أن ينعم
من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة
الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذي فيل
فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا
تلك عليا مراتب الأنبياء

ان محمدا يكي لأنه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ،
ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شيء في
الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعاققة المعطلين والمتعصين أعداء
كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ »
الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شيء يكون ؟

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه ، فان العرب
لوصّافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف
الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شكواها
على شيء يشبه أعراض الأمراض التي تذهب بالناس في مقتبل الشباب ،
وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع
اليها اعياء الولادة في غير موعدها ، ان صحّ انها أسقطت « محسنا » بعد
وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

وحضرها الموت.. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها في مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد ان اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمه ! ائتينى بشيبي الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشئ ؟ » قالت : « انى رأيت الجبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتموني ستركم الله .. » وتبسمت ، ولم تثر مبتسمة بعد وفاة أيها الا ساعتها ...

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله ..

في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخضع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأثى ..
فاذا تقدمت في المسيحية صورة مريم العذراء ، ففي الاسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول

شخصية الزهراء

من الواضح اليّن أنّ الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت نبي ، وزوجة امام ، وأم شهداء ..
ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، انها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصي » أو بصفاتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء ، فهي أصل قوى من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالا طويلا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا ، وفيما يلي من العصور
لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى على وفاطمة على حقهم في الامامة ، أو في الخلافة ..

حاربوا فيها زمتا ، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأنقوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حاربوا ، وصعدوا للطلب الحثيث طالين ومطلوين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلاثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصعدوا للعسف والعنت من بنى أمية ثم من بنى العباس ، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء على وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ،

وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثه ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي ، بل هي الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الأخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يفضيها ، وانه كان يرى ان الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعى اليها ..

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي اليه بالا ، وهو في هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذي روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا ان الصديق رضى الله عنه قام على المنبر يخاطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وبأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا نحيلاً يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحسن بن علي ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع في نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبي منبر ، وانه لمنبر أبيك » ..

وسمع علي بالخبر فأرسل الى أبي بكر رسولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم تأمره »

قال أبو بكر : « اني أعلم . وما اهتمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا يتكرر بين أبويه في هذا الأمر ، فوقر في نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها ..

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه ، أو يزداد عنه فلا ينكص عنه على رغم كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يفين الدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل في حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها في المواقف القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لاتنسى في الحساب ..

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بشبابهه أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .. وكانت فطرة الدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ماورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

ومن فطرة الدين في وريثة محمد وخديجة انها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، خنى وهمت ان آكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيت قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكل عرقا فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أنوضأ

يا بنية ؟ فقلت : مما مست النار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم
ما مست النار ؟ ..

فهى فيما تجهله تتحرج ولا ترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على
الهوادة معها ..

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت
أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت :
مارأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر
النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ،
ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب
أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك فى أمر
زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان
يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها

وقد يكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر
الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لاتعجل
الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن
أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم ترد عليه
ولا تنسى ان الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ،
فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى
تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين
يفسر المفسرون خلائق بنينا وماعساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

الذُّرِّيَّةُ الفَاطِمِيَّةُ

كانت العرب أمة نسابة ، يعنينا النسب لأنها تعتمد عليه في مفاخرها كما تعتمد عليه في مصائرهما ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة ، ومن يلحق بهم عاره ويرأون منه أو يظلمونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالى بشيء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه
ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة
وبعد الاسلام وجب حفظ الانساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس القتال نودى فى القوم :
اتسبوا . ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة ..

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ، صونا للنسب الشريف ، ودفعاً للادعاء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم باتسابهم

الى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب اليها رضى الله عنها
من ذلك ما روى عن المأمون أنه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : « بم
تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقراءة فاطمة رضى الله
عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن هاهنا الا القرابة فقد خلف رسول الله
صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان
كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة
للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، فان كان
الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما
لا يجب له »

قال رواية هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشيء »
وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء :
تلوا باطلا وجلوا صارما
وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم !

والا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة — وقد رزقوا اللسن والفصاحة
أن يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون ،
وأقر به على اللسان ان عليا ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وان
كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى
العباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين
والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جلود بنى العباس فى حياة الحسن
والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعوى العلويين بثل
حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجبرون على محاربة
الولاء للمتسين الى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج
للقاتل أو أعلن العصيان

قال العتبى : « كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدي معارضة ،

فكان الربيع يحمل عليه المهدي فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدي في منامه شريكا القاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ، وانه فاطمى محض . قال المهدي : على به ! فلما دخل عليه قال له : يا شريك ! بلغنى أنك فاطمى . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى . الا أن تمنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . قال شريك : أفتلعتها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدي : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعتها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا — وأشار الى الربيع — فانه يلعتها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعتها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال ؟ قال المهدي : دعنى من هذا . فانى رأيتك في منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الىّ ، وما ذلك الا بخلافك علىّ ، ورأيت في منامى كأنى أقتل زنديقا . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لا تستحل بالأحلام ، وان علامة الزندقة بينة . قال : وماهى ؟ قال : شرب الخمر والرشى في الحكم ومهر البغى . قال : صدقت والله يا أبا عبد الله . أنت والله خير من الذى حملنى عليك «

وحدث مثل هذا في معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة في حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبي وحق على ابن عمه ، الى انكار النسب بته ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء واستارهم بالدعوة ووقوع اللبس في الكنى والألقاب ، فطعنوا في انتساب

الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المناياذات أناس من علماء النساين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم ان هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الفواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى يتنسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية : « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن اسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للتقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غالبا فى التشيع للاموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حقّ الامام ..

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه في جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية في الخلافة لأنهم من فريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمة كتابه : « ومن الغرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا.. » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة في معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا معنى أنها أفضل نساء العالمين !

ونحن ننزه ابن حزم عن تعدد الاقتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة في اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفي والاثبات

وفيما يلي كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول في تلخيصه فنقول : اتنا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذي يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفي ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك في مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات في روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه

..وَالْفَاطِمِيُّونَ

- * الفاطميون ...
- * النسب ...
- * الباطنية ...
- * الباطنية الفاطمية ...
- * حسن بن الصباح ...
- * بناء وهدامون .. ومهدومون ..
- * حضارة مختصرة ...

الفاطميّون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق في تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي عليه السلام ، وأنهم أبناء الوصي على بن أبي طالب ، ولكن العباسيين يتازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون ان الانتساب الى النبي من جانب عمّه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبي طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجه انتمائهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة في مذهب الاماميين الاثنى عشرين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصى بالامامة بعده لابنه الأكبر اسماعيل ، ثم نجاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل في أسباب ذلك انه علم أن اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات في حياة أبيه فاتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم ، والبداء لا يجوز على الله ، ويعنون بالبداء

أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل في حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لا يسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثني عشرين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكري ، وعندهم أنه سيظهر في زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام في تبليغ شؤون الامامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى في أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه الأحكام ..

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين في العلم ، والأئمة هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤمنون ..

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير في الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التي تجرى على نظرائها في السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسماعيليين أمعنوا في دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء في عهد انتشارها

رازد مارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم
الراسخ بشؤون الإمامة في الدنيا والدين ، فإذا سأل السائلون عن أمر
مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذي يعلم مواطن السر والجهر
وينحين أوقات الفلك لاظهار ماخفى من أمور الدعوة وأمور الإمامة ، وكل
أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الاعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد
أصحاب النجوم سرا خاصا في عدد السبعة وعدد الاثنى عشر ،
ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد
فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج
الساوية وعدد أسباط بني اسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين
بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر .. ولكل منهم فيه
كلام طويل ..

وللامامين فروق يسطونها بين النبي والامام والحجة والنجيب ، فالتبني
يبحث في زمان بعد زمان ، والامام قائم في كل زمان ، وقد يكون الامام
اماما مستقرا فهو صاحب الحق في التوصية لخليفته من بعده ، أو اماما
مستودعا فهو يحمل أمانة الإمامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبها
ولا حق له في التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم في الخفاء اذا كان الامام
ظاهرا في العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من
حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا
استتر الامام فلا بد له من حجة ظاهر ، وقد يسمون الامام بالناطق أو
بالصامت تبعا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقيض فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من أئمة يرجعون
اليهم في كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل في حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الإمامة بعده
لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز الى الري ، اما لأنه لم يطق

منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبعت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح - كما سيلي - فهو في زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندي « مأمور » (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اسم « ميمون » كان من الأسماء التي اتحتها في حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتأمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيما بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسي ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلي سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعااته في المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه في هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل لمن يأتي به حيا أو ميتا حيث كان

(١) كتاب الجدل والفتنات في الخلافة الفاطمية
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs

والروايات تنفق كذلك على ان الدعوة كانت موكولة في المغرب الى
أبى عبيد الله الصنعاني من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن
أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاية الحسبة في بغداد

جاء في وصفه من كتاب - البيان المغرب في أخبار المغرب - لابن
عذارى المراكشي وهو من أعداء الاسماعيليين - « فاختاروا منهم رجلا
ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعاني ... فسار
أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من
أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك
بضعيف الحيل .. ورأى في الموسم قوما من أهل المغرب فلصق بهم
وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ،
فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفقتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه ..
ولم يزل يستدرجهم ويطلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدن
الى أن سلبهم عقولهم بسحر يانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه
عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم
السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركها وصرت أطلب
المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان ،
فسألت أين يتأتى ذلك تأتيانا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن
سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن في صحبتنا اليها ، ورجعوا منه في
ذلك ، فصحبهم في الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى
اليهم الشيء بعد الشيء الى أن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير
الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعده الشقة ، وقال لهم ان وجدت
بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا
مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال
لهم : لم أجد في هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم
بذلك .. »

ولا يتسع الكلام في هذا المجال لسرد أعمال أبي عبيد الله في المغرب ، فالذى عنيناه هنا هو الإشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة في دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوباً لا طالباً وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بمددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرّد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدي وخطته التى رسمها لاقامة عرشه في افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدي في المغرب قد دام أربعاً وعشرين سنة الى أن توفي (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر في عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهداً لهم الطريق في الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرّد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يعنى عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجاً يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض في قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهي الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تطاربا وتختشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى في العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم

والفن والفلسفة والتقصص في نشر الدعوة الظاهرة والخفية ، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لتنفيذ سياسة بعد أخرى ، ومنها الموكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمجالس المحاضرة والمناظرة في أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء



فقيام الدولة الفاطمية في الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسب من عبره وأطواره وتديراته ومصادقاته ، ولسنا في صدد الإفاضة في هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها في هذه المجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية في هذا البلد ، لأنه البلد الذي شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقي الخلفات في تاريخها الحديث

النسبُ

الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك - ومن أجل ذلك - أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تملئها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لاتأتى عفوا ولا يكتفى المدعون فيها بإبدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على إيرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون في تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها في مظان الاصغاء اليها والرغبة في اثباتها

وإذا كانت البواعث التي تملئها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدا قوة على قوة والحاذا على الحاح ، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات اليها ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة

لأن البواعث التي تملئها تربب السامع حين تنكشف له ، وقد يكون الالتاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين النقااض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا

كما تكسب من هناك ..

وقد كان اتهام الفاطميين في نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون في وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على النسب وكانوا يهددون بمساعيهم في طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول في المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذي يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم في نسبهم وتجريدتهم من الحجة التي يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هي الدعوى المنتظرة التي تعدت بواعثها في المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون في بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على اتسابهم الى النبي عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لايمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسمى بينهم دعوى آل البيت، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية في ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والأدبار الذي يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين في بغداد والأخشيديين في مصر والأغالبة في افريقية الشمالية والأمويين في الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين في هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال .

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التي كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزماد الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت في رأى أتباع الدولة الجديدة.، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولادة عهد العلويين ، كما فعل الرشيد والأمين . ثم استحكمت العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة فى الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسيين أبناء العباس عم النبى وان العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب . أما الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبى نفسه ، وليس الى الاعمام ولا أبناء الاعمام

فى أوائل الدولة العباسية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثه الاعمام أقرب من وراثه أبناء الاعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعفت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرباتها من بيت النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف والولاء ،

وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين
لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون
على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بنى العباس ، ومن
نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون
النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأى شيء أقرب الى مألوف السياسة من
دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت في
القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا انهم يتسبون الى ميمون
القذاح بن ديصان الثنوي القائل بالالهي ، وتلقف التهمة كل ناظم على
الفاطميين وهم صنوف يتشتمون الى كل مذهب ونحلة ، منهم كما أسلفنا
الاخشيديون والاغلبة والامويون الاندلسيون ، وزاد عليهم من كان
تابعاً للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء
العثمانيين في الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناساً من العلويين
شهدوا عليهم بادعائهم النسب في على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى
الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقي انه
كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقرري وينسبها الى عبد الله
ابن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الأشهاد بطلان نسب
الفاطميين انه سمع آياتاً نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى

مقول صارم وأتف حمى

ألبس الذل في بلاد الأعادى

وبصر الخليفة المملوكى

من أبوه أبى ومولاه مولا

ى اذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سيد النسا
س جميعا محمد وعلى
ان ذلى بذلك الجسد عز
وأوامى بذلك الربيع رى

فأرسل الى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول : انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا تزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاته منك ، وقد بلغنا انه قال شعرا — هو هذه الأبيات — فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو فاطر فى النقابة — نقابة الأشراف — والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الدليم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد ، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدي الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديسان » ..

وقد اختلفوا فى نسبه تارة الى المجوس وتارة الى اليهود.. واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا ف قيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل فى سجن سجناسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ، وقيل ان أمة

للإمام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عيد الله ونشأ في بيت
الإمام متتيا الى أهل البيت



وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية في العنف تتم على الغيظ وتخلو
من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب
بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والدمار — ابن معد بن اسماعيل بن
محمد بن سعيد — لا أسعده الله — وان من تقدمه من سلفه الأرجاس
الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد على
ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الاتساب اليه زور وباطل ،
وان هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ،
وللإسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمر وسبوا الأنبياء
وادعوا الربوبية ... »

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم في العنف والسباب فقال
صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم
انهم « بنو عيد ، وكان والد عيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ،
وقيل : كان والد عيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان
حدادا ، وعيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله
وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقى به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ،
وكان زنديقا خبيثا عدوا للإسلام متظاهرا بالتشيع متمسكا به حريصا على
ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان
قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد
عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة
والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم في البلاد ، وبقي هذا البلاء على الاسلام
من أول دولتهم الى آخرها ، وفي أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد
طوائف من أهل الجبال الساكنين بشغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر
انبلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكى

وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة .. «
ومن اعتدل من المؤرخين في الإنكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد
التهمة بالقصص التي تؤكد لها لو انها ثبتت كالحقصة التي اشتهرت عن
سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن
نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبي » ثم نثر عليهم الذهب وقال :
« وهذا حسبي » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير غناء ان الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ،
لأن الذين وقعوها من الاشراف العارفين بالأنساب قد آكروها على
توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم
حجة في مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف
بنسبة جد الفاطميين الى ديسان الثنوي وهو من أبناء القرن الثالث
للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية
بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من
يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أو دندان ولا شأن له بنشأة
الثنوية ولا بالدعوة اليها في قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل
عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على
الثورة في عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا
الموبقات لم يبق عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه
الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه
ما كان يباح في قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الاماء ، وقد خولط
الحاكم بأمر الله في عقله فجرح الى التنطس في الطعام وحرّم المباح منه بدلا
من اباحة الحرام ! ..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع في
نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفي ان
تسقط دعواهم في الخلافة حتى تسقط دعواهم في الاسلام وترجع

نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية في عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال في جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التي رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذي قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد توفي قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذي دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأثقع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى في الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله سعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سمعنا نمبا منكرا

يتلى على المنبر في الجامع

إن كنت فيما تدعى صادقا

فاذكر أبا بعد الأب الرابع

وان ترد تحقيق ما قلتـه

فانسب لنا نفسك كالطائع

أو فدع الأنساب مستورة

وادخل بنا في النسب الواسع

فان أنساب بنى هاشم

يقصر عنها طمع الطامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق

التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم واثنان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر « لاخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر ان عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحئين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك .. »

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم ان صلاح الدين الأيوبي أذن بالخطبة فى يوم انجمنه للخليفة الفاطمى ، وانه انما حوّل الخطبة الى الخليفة العباسى بعد وفاة الماضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعمار الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ،

فأبو المعالي الفارسي يقول في كتابه « بيان الإديان » ان ميمونا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق في مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون ان شهادة الشاهدين بالطعن في نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقرئى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف »

والمقرئى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمان طويل - وهما سنيان غير متشيعين - ولكنهما نظرا في مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى - هو عرب بن سعد - وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما تنتهى اليه فى هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمى - ان المطاعن لم تمسه بدليل واحد يعول عليه ، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه - سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن - ترجح صدق اتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكد كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تملئها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه ..

الباطنية

كان المنتفعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة في ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم في البلاد الاسلامية من لا مصلحة له في مطاعنهم ، ولكننا نحسب - بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه - ان المطاعن في النسب لم تكسب من المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكثرثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ في تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل ابن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس في المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهي في الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير في التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين بالاباحة والاجترار على مناسك الدين الاسلامي كالقرامطة في البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوفر في الأذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنية هي اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغريز والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره في روايات مختلفة :

خذى الدف يا هذه والعبي
وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم
وهذا نبى بنى يسرب
أحل البنات مع الأمها
ت، ومن فضله زاد حل الصبي
وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيام فلم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهض
وان صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا
ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنى قمسك المرس
ين من الأقربين أو الأجنبي
فكيف حلت لهذا الفر
يب وصرت محرمة للأب
أليس الفراس لمن ربه
ورواه فى الزمن المجلد

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسثوا
عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وانهم فى الأصل مجوس منطوون على
نفى شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة
العرب بالقوة فاحتالوا على ما ربحهم بالدسيمة والمكيطة ، وأنشأوا نطحتهم
لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئا فشيئا من عقائدهم الى التعطيل
والاباحة والكفر بالبعث والمعاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان
قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يثبون دعوتهم على درجات ويأخذون
الموائيق والايمان على مريدتهم ألا يفشوا لهم سرا ولا يظاهروا عليهم

أحدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدي الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التي تروق المرید وتشوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنتهي في الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الطول ، وانه هو روح الله قد حلت في جسد انسان ، ولعمري ماذا في وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هذه الدرجة في أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ ! وآفة الباحثين في هذه الألفاظ والاشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعتنون أنفسهم في جمع هذه الأخبار والروايات فاذا هي تتناقض ولا تستقر على قرار

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التي يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهي في السرية الانسانية وما يجوز فيها وما لايجوز ، وما يعقل وما لايعقل ، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات فمن الطريف حقا أن يقيّد المریدون بالايمان والأقسام ليكتنوا السر ثم يأتي السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعته الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة في الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا في يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهد بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

أما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر المعطل لكل غقيدة فلن يبقى في نفسه من الحساسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهومًا في القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يؤمنون يعتقدون أن الكافر يكفر في سبيل الشيطان وأنه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلاً من نعيم السماء ، وكانوا يؤمنون يقولون عن أناس بأعيانهم أنهم على صلة بالشيطان وأنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره ففقدوا معه صفقة المغبون في حساب المؤمنين

أما في عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الإنسان ملحدًا ينكر كل شيء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كأننا ماكان ، إلا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في يته ، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالاتباع المرادين من الجهل بحقيقته إلى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغوياته التي يلبسها على الناس بتبليس من ألقاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم في اليمن وفارس وادعائهم النسبة إلى الإسماعيلية في المغرب مع مجاهرهم بالمعاصي واجترأهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والإسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدي البحث فيه إلى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء ..

وأغرب الغرائب أن أحداً من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر في المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الإباحية والعصيان ، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض

بقاع الشام ؟ ..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر في التاريخ أن الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون في بلاد الدولة العباسية ويعلمون الخروج عليها ، فهم في حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، واتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذي يركنون اليه في محاربة الدولة العباسية وانكار حقها في الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصي لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هي بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين ..

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسي حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمي في القاهرة ، وسوّل لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم في فتح أطراف من بلاد الشام وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الاباحة هي الدرجة السابعة أو الثامنة التي يصل اليها المريد المترقى في كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى أن هذه الاباحة سر مباح في الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردّده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما انفصلا في بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملياً ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التي تحجبها عن عمد وتدير ، وواحد من هذين العاملين كثير على مؤرخي الورق والحروف

اتنا عرفنا ألوانا من النظم السرية التي اصطلحت عليها الجماعات المتسترة في العصور القديمة ، وبعضها ديني يتخذ له أغراضا سياسية

كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الان كيف
تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لاندري هل هى فى الحق كانت موجودة
متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى
فى هذه الحالة للإحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى
هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل
الى قيادة الدعوة ثم خافها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن
الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ،
أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى
إبانها أو بعد انقضاء زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار
الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة
التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقا
لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم
الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه
قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن
هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضع النظام كله ومرتب الدرجات
كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل
ابن جعفر الصادق جد الامامين أجمعين ..!

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات اسقنى الخمرة يا منبر

فليس عندى اثنى أنشر

أما ترى الشيعة فى فتنة

يفرّها عن دينها جعفر

قد كنت مغرورا به برهة

ثم بدا لى خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها .

مشيت الى جعفر حبة
فألفيته خادعا يخلب
يجر العلاء الى نفسه
وكل الى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا
لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا
سما « عمر » فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أبناء القتلى من آل فاطمة وعلى ، سرا مجهولا قبل الياذ بالإمام جعفر والمبايعة له ولبنيه ، ولأحدث بعد العلم بهذه الأسرار وغيرها أنه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما تواترت به أخباره في المشرق والمغرب ، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل

وعلى هذا النحو يتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلقيقه . وخير من هذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم الاسلامي من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخصص منها بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعي التكنم والمداراة من جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت في دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلفت قواعد الحكم وضاعت الثقة في الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمتنقصون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبي مع وجود عترة النبي من أبناء علي وفاطمة ، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعي في الخلافة زعم أن الحكم في دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهباء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائميين بها والاستسلام للادعاء الوائين عليها ، وتتابع المنتحطون للمعاذير الدينية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المعتصمين أو المستضعفين

وفي تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبي الذي نسب في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين في الكوفة . فانه ادعى النبوة أو المهديّة في بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التي طوب بها كما جاء في رسالة الغفران انهم قالوا له في بنى عدى : « هاهنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقرنا انك مرسل . فمضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسحاة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فمجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدث أيضا أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحتة جرحا مفرطا ، وأن أبا الطيب نقل عليها من ريقه وشده عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها في يومك ، وعد له أياما وليالى ... فبرى الجرح

فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاه ، ويقولون انه كمحبي
الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية ،
أو في غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع
فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ،
ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك
الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألقى الأمر كما ذكر .. »

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية في عنوان شباب أبي الطيب ،
فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب
الولاية بذريعة الأدب والكتابة ، وأطمعه فيها أن كافوراً الذي طلب منه
الولاية كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله
يعبد في مصر .. ! »

قال داعي الدعاة يصف حال الناس في تلك الأزمنة من كتاب أرسله
الى أبي العلاء المعري : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى
الى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتحلا لشرعة صبا اليهم
ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا
باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه
ويسفه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله في مهواة ومضيعة .. أو منتحلا
للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ،
مستغفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم
المنفعة بمكاشها ، لكونها مقبلة للجاهلين ، ولجأما على رؤوس المجرمين
المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة في الدار الأخرى . فلما
رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ،
بفضل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان
والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره متبليين ،
فكل يذهب فيه مذهبا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا
جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسينا ، فحفظته بالغيب ،

وقلت ان المعلوم من صلابته في زهده يحويه من الظنة والريب ، وقام في نفسي أن عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرنا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدي فيما حدثت عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لنا سائلا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ماتخلف عن معرفته المتخلفون واختلف في حقيقته المختلفون .. »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى ابن أبي عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة في الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه في تحريمه اللحوم على نفسه ويسأله عن البعث والقيامة ، مستعظما على المتقولين أن يتهموا بإنكارهما حكيميا كأبي العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبي عمران » تفسيراً لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور وعلى ذكر أبي العلاء واعتقاد الناس في أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردي حيث ذكر في تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحتضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأثرلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة واجتمع بنوعه وتألّموا لذلك فقال : ان لى ربا يمنعى ، ثم قال كلاماً منه مالا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير وزير . فوقع المجلس على الخسنيين فارساً فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالي أنه قال : « حدثني يوسف بن علي بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المعري زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والمملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا وإن أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك يا عم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يدب عني . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لعلامة : انظر الى المريخ أين هو » فقال : في منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد في رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففصل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجودات ! أنا في عزك الذى لا يرام وكفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أنني زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملئ على أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله في أمني وأوجالى

من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليفة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهونون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب

(١) كتاب أبو العلاء المعري للمرحوم « أحمد تيمور باشا »

الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخلق أن يقف النظر طويلا عند قول داعى الدعاة أنه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترًا » . فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر ، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه - فيما زعم الزاعمون - ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعائه المخلصين وأدعيائه المعرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكاة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدييره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة

ونشأة البحوث العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ، ومنها اقتباس الحضارات الغريبة وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء في غير بحث ولا مبالاة وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يعضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير . وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعي الذي لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ماييطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجعات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم في ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطبلين ، فان الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح في العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهديّة ، وقد أوقعت في النفوس ان ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخطأ أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ في الخفاء ، وكل ما تذرّع به الظالمون في الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، الى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدييرا ولفقها تلقيفا لهدم الاسلام خاصة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، واتقاما منهم بالدميسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مفرضين غرضهم معروف ، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديسان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذى يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك فى الامام جعفر بعد أن لاذ به وتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجرى مجرى المؤلف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا ملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستتهن بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات

في الخفاء على أفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد آحاد من الحائرين والمترددین يحفظون شكهم لأنفسهم أو يظلمون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خطبوا في العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذي نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بني الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكروا عنه ولم يرتضوه ..

ففى حياة الامام على كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجة النبی وينشرون مذهب الطول وتناسخ الأرواح ، وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول في حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرأنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه في الصلوات ، ومكان الامام وابنه محمد في الاسلام أرفع من أن يتناول اليه من أجل هذا عدو يلج في عدوانه فضلا عن الولي والصديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون في ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحرق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز وتركهم بالعراق يلجون في الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق - أبى اسماعيل رأس الاسماعيليين - من داعية يفترى على الأئمة العلويين ، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم في مبدأ أمره ان أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام جعفر اله

يعبد ، فلمنه جعفر الصادق ويرى منه وتقاه . قال أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك في نفسه أنه الاله ، وقال أتباعه ان جعفر الاله .. غير ان أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من علي ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور مانخلوه لأصحاب المذاهب من الشيعة والسنين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للإمام علي* وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو يمين الله في الأرض يضافح بها عباده ، وحملته الى أرضك ورجوت أن تشركك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات في المذهب الفاطمي ، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون في الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المزمز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : « الزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنفص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتهلكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. »

وعلى خلاف دعوى الربوية كان المزمز هذا — وهو أعلمهم بالتنجيم — يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات : « من نظر في النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون

فقد أساء وأخطأ ..

وكان العزيز كالمز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في إحدى قصائده:

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها
وفي أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدل وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
بما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وان جميع الكافرين مصيرهم
الى النار في يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية
وألقتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى
مسخرة مضطرة في يروجها
تسير بتدبير الاله على قدر
وان جميع الغيب لله وحده
تبارك من رب ومن صمد وتر

وما علمت منه الأئمة انما

رووه عن المختار جدهم الطاهر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين في عقله - وهو الحاكم بأمر الله - فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحه وادعاء الربوبية ، وانه ورث قوم من اليهود أو المجوس منسدين على الاسلام لفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويفضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلمس يدها وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس في السلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة أنه كان في تخطيطه وتجديفه فريسة المضللين من وزرائه ولايجوز أن يقال انه تولى العرش وهو يعلم انه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين الى الكفر والاباحه وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تأمر عليه آبأؤه وأضمره

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجه وكل ما شاع عن نقائصه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف في القاهرة لذلك المهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قره قوش » صورته للناس في صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيلات والفرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلقينات الرواة ، فحسبوا كلها لامية فيه ، وتناقلوها وأضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطيء الى زمن قريب ، وقد كان « قره قوش » على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا في الحزم واصالة الرأي وحسن التدبير

وعند ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا في الجور والعدل والاخافة والإمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوئه ذر عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل

انسنه من المصريين في صلاة التراويح ثم ينهى عنها «
على أن الأقاويل عن الحاكم - صحت أو لم تصح - إنما تروى عنه
ويعلم رواياتهم يتكلمون عن رجل مخالط في عقله لا يعول له على سر
أو علانية ..

ونجب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته إلى الدعوة الفاطمية في صميمها
على حسب ما اتهمنا إليه من الشواهد النفسية والتاريخية
فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا
لأنفسهم من دراساتهم في التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهباً ينكره
علماء الدين من السنن والشيعة

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة
لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل
دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول في دور
التأسيس أو في دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيداً ولا موجب لاستبعاده نظراً إلى أحكام العقل
أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذي نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعي
النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على إنشاء
دولة لهدم الدين الإسلامي والدولة الإسلامية معه ، وأن يشمل هذا
التواطؤ أقواماً في المغرب والمشرق ويدوم من قرن إلى قرن قبل نجاح
الدعوة وبعد نجاحها بزمان طويل

هذا هو البعيد عقلاً والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط
بدليل يقرب إلى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أو شؤون الدعوة العلوية
في جملتها فقد سار في التاريخ مطرداً على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه
أن الإيمان بالامامة وإطلاع الإمام على الأسرار التي تخفى على غيره .

أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية في نشأتها التاريخية
فان المؤمن بحق على وأبنائه في الامامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله
على أدعاء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها
حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان ،
وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغي أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل
الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت
معه المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذي أصبحت
فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما
يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعائه الذين يخلصون اليه ويعلمون
مكانه ويفسرون أقواله وإشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من
هذا التعليم ..

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد في قيام دولته على
الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذي
لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شيء غير الطاعة والثقة التي لا تتزعزع ، فلا جرم
يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل في شؤون امامته ، ويؤمن
بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، وتقض
العهود وحنث باليمين

كل هذا يديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه
لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان

ولا تنسى ان الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم :
يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسرة الذي يروضون
أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التي نسميها بتوفيقات « الموقف » أن الباطنية الواقعية

والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا — بحكم الموقف الواحد — في كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى في جانب واحد . وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت في العنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التي لا يرتاح اليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندي والفارابي وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة : ومن كان من الفلاسفة سنيا كالنضر الرازي فمذهب الفلسفي في صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين . اذ كان يرى أن الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد ..

والذي نستخلصه من المذهب الفاطمي أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو يسمى في حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب في الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية .

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذي كان يقول به أفلوطين .

بل نستخلصه من خلط الخالطين في هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط في كل مكان ، وقد تعرض له في الشرق كما تعرض له بين الأوربيين في القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له في العصر الحديث وعلى تقيض ما قيل عن الاباحة في مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب

الفيض الالهي بالمبالغة في التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التي يتهالك عليها الجلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشيء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة في حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم في رسالة الجسمانيات والطبيعات : « اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه ويئسه منها كما قال قائلهم في هذا المعنى :

هي الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسوف الظنون من السوام
وقيل أيضا في هذا المعنى شعرا :
خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وان طال المدى يتصرم
وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :
ما جاءنا أحد يخبرنا
في جنّة من مات أو نى نار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرهم به من الزهد في الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها « ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفي انه مذهب نساك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره وتفاصيله ليلزمه في معبده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب تنقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا
عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى :

« ... انه يتجاوز - أرسطو - أشواطاً بعيدة في التنزيه والتجريد ،
فيرى أن الله - أو الأحد - من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يعرف
ولا يوصف ، ولا يوجد في مكان ولا يخلو منه مكان ، وكما له هو الكمال
الذى تفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيئات أن تفهمه بإثبات صفة
من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن
نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان في حالة الكشف والتجلي حين تتجاوز الروح
جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فإذا انقضت
فقد يشوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام
الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق
المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو أن الله أو « الأحد » لا يشغل
بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور
العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل
يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه في مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل
ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى
أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديهي ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئاً منه
ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل
فلا تنقصه ولا تجرده من شيء فيه ، وعلى هذا المثال تفهم صدور العقل
عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس - وهى المرتبة الثالثة في الوجود عند أفلوطين - تتجه الى
العقل فتنسجم معه في مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهوى فتبتعد
عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على
سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى في عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور

المجردة . فهذه المحسوسات هي كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس في عالم المحسوسات ، أو هي كأطياف العالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر في اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فان العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تتحدر الى الهيولى التي لا نفس معها ، وهي معدن الشر في العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الایجاد أو الایجاب

» وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات . فهي باتجاهها الى النفس الكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الافلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهي تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار في ذلك العقل ، وللشوق الهولاني الذي يترفع بالهيولى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والتر في العالم هو الهيولى لأنها سالة تنزل بالمعقولات والروحيات التي لا تلبسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسيتها بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتتنصر عليها وعلى شهواتها ، فان أقلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت في كل مرة جزاءها على الذنوب التي اقترفتها في حياتها الجسدية الماضية ..

» ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملبسة الهيولى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهد الشهوات ، فيترقى

من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، ويتنقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل بينهما لشيء من الاختيار ، وان قال به أفلوطين في بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التي نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب مجملًا في بعض الأوقات ومفصلاً في أوقات أخرى الى اللغة العربية ، ووقع في نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير .. فنسب الناقلون فصولاً منه الى أفلاطون ونسبوا مبادئ منه الى أرسطو، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفة الاسلام في المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامي وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلي على الخلق من العباد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأتقى في هذه الدنيا بردها الى الأجساد التي تشقى فيها : أو مكافأتها بردها الى الأجساد التي تترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة مما ما يوافقهم في أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذاً بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى في الرؤيا الأنباء بالمعانيات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف في مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف في مادة الكون بقدرة تستمدّها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا في تناسخ الأرواح ما يفيئهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحاني مع اعترافه بأنه من غير نسله في السلالة الجسدية ، زاعماً ان البنوة تحصل

بالإتماء الى الروح كما تحصل بالإتماء الى الجسد ، ولم يكن في هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام عليّ بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهرستاني كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال في تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : ان الله « لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل ، ثم يتوسطه أبدع النفس الذي هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النفس الى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ »

فهذا المذهب في الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين في جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ايهام اتنا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واتنا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما تقدر عليه بأمر الله ، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينكرون نقائص الكمال ويرتفعون بالكمال الالهى مرتفعاً تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط في فهمه ممن يعرفون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى في الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان . فان انقائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفية أفلوطين جد النفي تنزيها لله « الأحد » عن جميع

المحسوسات والمتعددات ..

ويسمع السامع ان حكمة الخلق تتجلى في أناس بعد أناس فيخيل اليه ان اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله في كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء ..

هذا الخط في فهم المذهب قد جنى على الحقيقة في غير طائل وجر الى الخبط في الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحجب الحذقة والادعاء ..

وقد كان ابن هانيء الأندلسي من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هي طبيعة نشأت معه في موطنه ولغت بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركته في أضراليه وخزعلاته ، ولما مدح المعز الفاطمي بقصيدته الرائية التي قال في مطلعها :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكانما أنت النبي محمد

وكانما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ، فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بمدوحه حاجة اليه ..

الا اتنا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذقة والمبالغة في الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألوه المتصوفة وأبناء الطريق فمن عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يُسمع مثله من امام كبير كمحيى الدين بن عربي في كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين الى فخر الدين الرازي رسالة

يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشفه ، لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام ، فقوام الايمان واستقامة الشرع يكتم السرية .. » الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحادية .. وفوق كل ذى علم عليم ..

وهذا كلام لولا ولم المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام . ولكن الاغراب في أساليب المتصوفة والحدلقة في أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير — كل أولئك يقود الى الظنون حيث لا موجب للظنون

وجملة القول ان الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب في ذلك العصر « باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصفاء ممن يتذكرون العلم بينهم ويظهرون منه حيناً بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالي — وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة — كان يؤلف للعامة غير ما يؤلف للخاصة . وكان من كتبه ما يرضن به على غير أهله ، والامام ابن عربي المتصوف كان يدين بالسرية ويرى انها تمام العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعري الشاعر الحكيم كان في رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضاً ويتهم بعضهم بعضاً بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعاً :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوباً لعمل لا حيلة له فيه أو متجرداً لرسالة يهون

فبها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق ان الباطنية الفاطمية أضيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذي سيأتى ذكره في زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء في حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل في خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبه ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

فقد استبد الأمير بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة — وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية — وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الأمر على خطة أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الأمر بوزيره ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة وواقفه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائم اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحي لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحي من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين تفاهم من مصر ثم تسللوا اليها خفية .. وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحي لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمي المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام

المطاع الى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا الى تدمير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستعانة بذوى المطامع والتراث ..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه - كما سيلى - على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو في قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها في ميادين القتال وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت في التخفى أو في « الباطنية » الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعن خصومها في الهجوم عليها



أما قبل دخول ابن الصباح في زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا مجيد عنها لا تتشاور أصحاب الدعوة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيمة التي تنال عليها « مجوس أو يهود » يبتغوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لازما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في الخوف من الاسماعيلية ، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانهم ، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون ان الحكم في أيدي أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم ، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس في كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت ولهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهي خرافة تنكرها

الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبتة
الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التي يختلف عليها طوائف
المسلمين من سنين وشيعين ، بل يختلف عليها الشيعون الاماميون
أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر
الصديق ، وليس وراء ذلك كله دسيمة لهدم الاسلام كله وتفضيل
المسلمين أجمعين ..

ومحصل القول في المذهب الاسماعيلي من الوجهة الفلسفية انه هو
مذهب الفيض الالهي كما اعتقله المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات
السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة
الامام وانه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والاحاطة ببواطن
التنزيل ، وينبغي أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان
مذهبا من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف
الفارابي الذي كان يلقب بالمعلم الثاني قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال
العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلة ، ولعله لهذا كان قريبا من
الشيعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة
غير الامام على وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على السنة
طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم،
واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على
وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح
الذي أطلق الألسنة بلعن علّي على المنابر ستين أو سبعين سنة هو
الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة
الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

حَسَنُ بْنُ الصَّبَاحِ

أشرنا في الفصل السابق الى التغير الذي طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح في زمرتها ، وسرى من جملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى الدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

وافقت الأخبار الصادقة والكاذبة التي رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهي الجنون بالسيطرة والغلبة ، وتعتمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطبق الميث بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للسيطرين ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق ..

وكان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه

ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيا عظيم الدماء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها
كانا أعظم من دهائه . فأنكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ
تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة
من الخرافات التي كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن
التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو
الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ،
ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والعلبة وقهر الخصوم
والاقتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس — أو من مألوف هذه
انفوس خاصة — أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويمرز ايمانها بمطمعها ،
كما يفعل المحب الذي يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض
طبعه على اليقين وتجميل الميوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من
عذاب الشكوك وانكشاف الميون

وهذه الطبيعة الموهودة في أمثاله دون غيرها هي التي تفسر لنا أعمالا
شتى يبدو فيها خادعا مغلوعا في وقت واحد ، فهو حصيف لا شك في
حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف في مثل ذلك السخف الذي لج به
حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟
يقع الحصيف في مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان
مغلوبا على أمره مضطرا الى تسوين دفعته بمقيدة تجعلها في نظره وتلبسها
ثوب الواجب الذي لا محيد عنه ولا هوادة فيه

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره في طلب السلطان فحياته
كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير
السعي الى السلطان ، فانه ما اتصل بأحد قط الا خافه على مكاته وتوجس
منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طبعه أقوى من دهائه

وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع في كل علاقة وفي كل مكان
سمع في شبابه عن الشيخ موفق النيسابوري ان تلاميذه جميعا يرتفعون
ببركة تعليمه في مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ
الموفق معهد السنة في نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعليم فيها
على أمل في الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب
« جامع التواريخ » .. وفي روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه
وبين الوزير نظام الملك انه كان يتلمذ معه في مدرسة نيسابور فتعاهدا
على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن
الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيّره بين ولاية الري وولاية أصفهان ،
وكان ابن الصباح على الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه
نظام الملك في الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة
الولاة ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال
يصح منها شيء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن
مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباه ..

وحدث ، وهو في الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك
فوعده الملك بانجازة قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه
وأوصد عليه الباب الذي أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل في تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمي انه استوعب كل
ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد
المزيد من العلم بالشخص الى دار الحكمة في القاهرة ، لعله يستوفي
هناك علوم الاسماعيليين التي غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح ان الشخص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسمى
الذي لا تتصرف عنه همة طامع في مناصب الدولة ، فليس له مطمع في
بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد

لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وند تحكم فيها رجل قوى الشكيمة كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بها دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملا في الملك ان استطاعه لنفسه ، أو في توطيد الملك لذريته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالي الذي سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذي تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلي كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم انه مثل بين يدي الخليفة المستنصر فوكل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولي عهده بين الأمم الاسلامية . قال : « فسألته ومن ولي العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت الى اسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى ، فأنه الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسا كالأساس الذي قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين ان الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أتزله منزل الكرامة في دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقرب والاقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشئ له دعوة جديدة في المذهب الاسماعيلي ، وهي الدعوة الى امامة نزار

وراح الحسن يطوف في بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو ان حوافز النفس العلابية كانت في تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطعم الذى ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه في أصفهان : لو أن معى صديقين أركن اليهما لاتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيغه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك في عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته في هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم في الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم في طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحضر انه لم يعرف من أستاذه مكانا من الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنائه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها ..

وواضح ان تجارب الحسن في رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أياسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تئسسه من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواه في طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعازل في أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالإمامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم فيها

زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتفاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها ، وساعده على انتزاعها انه خيل الى أهل الاقليم ان مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التي تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة في أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر في الفارسية و (اموهث) (١) بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين في مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الامام في كل زمان !

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التي نزجى الاحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العشور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة ..

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر انحشيش من أستاذه الطيب ابن عطاء فسخره في نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التي يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم في غيبوبة الخدر ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم اذا ماتوا في طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العياني » يفسر طاعة أتباعه

(١) ينطق اسم القلعة « الاموت » او الموت بفتح اللام

الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة « أساسين » Assassin التي أطلقت في الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنين نسبة الى الحسن بن الصباح وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفسه من حلق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهره ولا يجتهد في الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين ويتتجنن اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الاعداء ..



وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالي « ماركوبولو » الذي ساح في المشرق في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافي مقبولا في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء ..

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصل في قلعة حسن بن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق في كل خيط من الخيوط التي نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهي المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدّة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير في تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن ملخني الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه في وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان

والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهيم صاحبه
لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من
المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ،
فهل من العسير أن تتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذي
نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة ،
وقد كان الصليبيون في حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم في عرفهم
قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرّروا انهم
يستمتتون في الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التي تجرى تحتها الأنهار
وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة في سبيل الله
واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذي أحوجهم الى سبب كذلك
السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركو بولو في روايته يقول
ان الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون
النبي عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون،
فهم في شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف
يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخلوا لذلك سببا غير الجنة
الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التي ترى في هذه
الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخي المشرق وذكر
بعضهم ان أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من
المسكرات المحرمة ، وذكر البندري مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين
وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهي من
مخترعات الغرب لا نعلم انها وردت في كلام مؤرخ اسلامي قديم ولا أن
أحدا من مؤرخي الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو

المصادر الاسلامية ٢-٢١

كان لها مصدر من المشرق الاسلامى لكات كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين ..

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة ان وجه الغرابة الذى دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شىء الى اتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء . فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لأهماتهم اللائى كن يفرحون بفقدهم وينتجن لنجاتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآلة التى رآها أبنائهن رأى العيان !

لقد كان الأمل فى ظهور المهدي المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شىء بفتن آخر الزمان أو باشرط الزمن الذى يظهر فيه المهدي المنتظر ليملا الأرض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجيل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبنائها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الاطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكانت لشيخ الجيل ارادة من حديد تسلط على أجناده تسلط « المنوم المغناطيسى » على المدرين عنده على التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاه الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلطين .. فلا يحتاج الفتى

المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب ..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم في الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يترث فيه . فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم »
The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصحّحون نسب

الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم في العلوم وفقه الدين ، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدي حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع ولا ينخدع وانه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

الراجح عندنا ان هذا « المهدي » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله في الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك في ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير في ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنّا تتّخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التّضليل والخداع ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون اعتقاد الانسان في عمله خيرا من اعتقاده في أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الايمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟

ان « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال

الزمن ودواعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح في رسالته سلبية قبل أن ترسخ في طويته بالاعتناق الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض ونعني بالرسالة السلبية انه آمن ايمانا لا مثوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل في حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات ؟ اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولا يبد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجان من الفرق في لجج اليأس والانكسار وظلمات القشل والهوان وقد قال داعي الدعاة في ذلك العصر ان الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو متحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجأما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

وهذه عقيدة قوم لا دفعة في طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، ولبس في طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة في طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى في نفسه الا انه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هي أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدي سواه وقد سوغ أفلاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين

الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذاً بدفعة السيادة ، وليس في زماهما دعوة سرية عامة كال دعوة التي لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب في قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد انه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما أطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسائله الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير موارد ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بمقيدة الا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستسلمه اليقين وتسعون في كل مائة ، ان لم تقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالمقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعلمهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته في نفسه ، أو في دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يمز عليه أن يمزها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتصق فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حيناً بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائباً عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع المخدوع ..

استولى الحسن على قلعة « ألوث » في سنة ٤٨٣ هجرية ومات في سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الاسلامية من مراکش الى تخوم الصين

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة ، فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار » وولي عهده ، وتسمى بالمهدي ، وانتحل البنية الروحية للانتساب إلى الامام ، واستعان بتعدد المراجع في المذهب الاسماعيلي على انتحال المرجع الذي يروقه أن يدعيه ، فهو : حجة ومهدي وإمام كما يشاء .

وقد اعتمد في توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقي ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بستين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمر فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها في أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة ولقد أصاخ الى نصيحة وزيره في هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتياه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذي سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه في اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الاتباع والأشباع أنها كرامة المهدي تنجي من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدي ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ، ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاربين في شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير أنه من الاسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم في عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل في أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والأتاوات في اقليمه ، وروى أنه وجد في طريقه الى حصار « آلموت » خنجرا مغروسا في فراشه مكتوبا عليه أن الذي غرسه هنا قادر على أن يغمده في صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلمون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى زار ويدعى المهدي لشيخ الجبل ويحارب المعسكر

الآخر من الاسماعيليين ، والثاني يدعو الى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدي المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الأمر » الفاطمي وأنه يحضر موسم الحج في كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا في موسم من مواسم الحج فقد رآه ..

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هي حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموث . انه لم يكذب يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطني » الذي قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق انكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطياب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته إياه في شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطمع له بعدها في الذرية ، وهذه هي حيرة أخرى من حيرات لا تحصى في مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفي مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه في شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هي قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكاته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكاء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ..

هل له عقيدة يصبر في سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر في سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح في سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان
العجيب ..

ونبدأ فنقول اتنا ينبغى أن نستغرب من حسن ابن الصباح ما هو
غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان
فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى
جانب التواضع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟
هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار
فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك
الشهوات ؟ ..

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم
نازعة تطغى على حنان الابوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعد على الإطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله
الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم
الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمرىقتلها
قد تأمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى بعض
الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تأمر عليه كما هو الأرجح ويكون
ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون
بطشه بابه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على
النبش بالغرباء فى هذا السبيل

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بنفسته حيرة مثلاً :
فأنفى الظنون للحيرة انه أطاع بلبه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه
اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض
بنفسه على شذائذ تلك الرسالة لتكون الشذائذ التى يضطلع بها حجة
له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة

الفتك في أزمت طبعه ولكنها سوراة ونوبات دون الجنون المطبق في جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدري موضع الغفلة من سريره ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكاء والألباء والحصفاء ..

السّريّة الباطنيّة

ولعل سيرة شيخ الجبل في تقاضها المعلومة هي ألزم السير للتعريف
بمعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه
السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذي ينوطه الامام بدعائه ، لاتبعا
للفكرة أو للعقيدة التي يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى
كانت السرية تشتد كلما خشي دعاة الامام في بلاد أعدائهم على أنفسهم
وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لهدفهم
وأعون على تشتيت أعدائهم وتبليبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى
حتى لاسرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية
لهم ولسياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون في الأندية العامة
لاعلان آرائهم واقناع معارضيههم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة في الامام ،
حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقتناع الداعية أو الفدائي
بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال في غير اشتغال على حياته
أو حذر من عاقبة أمره ، ففي هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التي
توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة
وكثيرا ما يستغنى الامام عن المغالاة بقداسته في الأزمنة العصيبة التي
تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود
وتوالي العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدي وانتصار زمرة على
أعدائهم وأعدائه ، فاذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالامام الى
عقائد المبالغة والمغالاة في أمره ، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع ياتمر

ينعوتة جند مصدقون مطيعون

وإذا أردنا التوسع الذي يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الامام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

وقد لخص الفزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فإذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فإذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعه ؟ أقبالنص ولم يسمعه ، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهد عند عدمه ، بل كما يفعله دعائهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الاتفايع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة . فاذا أجزيت الصلاة الى غير

القبلة بناء على النظم - ويقال ان المخطيء في الاجتهاد له اجر واحد
وللمصيب اجران - فكذلك في جميع المجتهدين .. »
ومهما يكن من قول في تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه
أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قول الشيعة وماعداه فهو قول السنيين
وجميع المقرين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن
مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة
لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

خذ لذلك مثلاً اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه كافية على
مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يعنى عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ
به الاماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام
يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال
لهم : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » . ولم يكلمهم الى الرؤية قبل
ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة
التي لا محيد عنها لمن يقولون بالامامية ، وانما يختلف العلم المستور
باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل
القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور
سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفاً
على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم
تلك السياسة أجمعين ..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعة بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين
من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض
الامانيين فى أمر العصاة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل
حسن ابن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة
الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه ، ولكنهم

يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ،
ولا سيما في اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره
طائفا فهو الصواب المطاع

لقد صحننا منشىء « الاسماعيليه الجديدة » من عهد بروزه في ميدان
الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى . لأن حياته العامة
لا تتوقف على أخباره في أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه
حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو يتسبب الى اليمن ويذكر من نسبته
أنه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح
الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من
يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة ، صناعة الصابئة على شواطئ بحر
العجم ..

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى
قربته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب
ابن الأمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار امام الحسن المختار ، وقد
أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من
أقربائه المستورين ان صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك
بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ،
لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام
من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام
الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئا من ملامح
« الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب
الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه

يعد شخصية أثبت في ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث في
الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التي اقترنت بالفاطمية
في تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

بُناءٌ وهَئامُون - وَمَهْدُومُونَ

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا في المشرق والمغرب واقتنوا في تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها ، ويضلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى يخيّلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له في اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال ..

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها في التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسيء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شيء منها للإساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الاسلامي متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم والواقع أن جو العالم الاسلامي قد تهيأ في القرن الثالث لقبول هذا التبديل في نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكاتوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلبّح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويجب السامع مما سمع فلا ينسأه وقد كان علم النجوم قد استفاض في كل مكان ، وليس أكثر من

مقارنات الفلك التى يحسب النجمون أنها علامة الغيب على الغير
والاحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم
الذين يركنون اليها ويتربونها . ولا سيما حين يكون علم النجوم
علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويغضه المحافظون ويتشاءمون به
ولا يتربون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن
النجم ذى الذنب فى زمانه

أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلباً أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهية
إذا بدا الكوكب العربى ذو الذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث الى الوجهتين
المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها ،
وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية
التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور
المهدى بالله وييشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ،
وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى فى كفه .. حتى يكون
أوان ظهوره وطلوع نوره . . وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفأل بمقارناتها
ويشير بها أتباعه ، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا أن الكون
كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين
وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم - كما جاء فى المقرئى - انه قال
فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين

العقربيات الاسلامية - ٢ - ٢٧

سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :
ألا يا شبيعة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نصره الله على التحويف والزجر
فعند الست والتس حين قطع القول فى العذر
وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى ارساد النجوم علامات
زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال
أبو طاهر القرمطى :

أغرکم منى رجوعى الى هجر
فعما قريب سوف يأتیکم الخبر
اذا طلع المریخ فى أرض بابل
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك أتى
أنا الضیفم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى انه من رصدة النجوم ،
فاذا بلغ بزمان أن یترقب فيه الضرر ارساد السماء فهو زمان تفعل فيه
العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغير هو الذى علق الأبصار ،
والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت
فى نفوسهم جهم للتغير وتطلعهم الى الغیب من بصیر وضریر
وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث
للهجرة كانتا تطلعان الى شئ ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك
ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغير هم طلاب التغير
وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكثرین للدفاع
عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد
كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ،

ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت الموليين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدمون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش في بغداد ، ولولا عامل من عمال بنى العباس في الرملة لاعتقل المهدي وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الطاجب في سيرته : « وصلنا الى الرملة فترلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي ... كيف يخدمه ورفع المهدي فوق رأسه وقبل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجائب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدي ويأمره بالبحث عنه والمهدي في داره فانكب الرجل على رجلي المهدي يقبلهما ويكي قطماته المهدي قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذي تقسى ييده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدي نواصي بنى العباس .. »

وتبين غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدي وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل في تبليغ الرسائل الى المهدي وهو في طريقه كما جاء في روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وإيمان برسالة المهدي على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدي من عشرات الولاة والعمال في الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل في باب العجب من ولاء أمير قائم على عرض دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس

بغير الدعاء على المنبر في يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الأخشيدي ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه - وقد سقط منه - فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعت الى نفسي ، فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يتشرف لها .. »

هذه هي أشرط الساعة وعلامات الزمان التي وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشرط التي تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقتناع وهو أهم أعمال الدعاة

وتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناء وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشي الزمن ، وهي بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم والتوهين ..

وقد جرت العادة في كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتي بعده بناء أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدي عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التي تنبئ لبناء الدول وموطدى العهد ، فلو تابعت أعمال الدعاة ودواعي الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمات والهيبة ، كما اتصف باليقظة

مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأي وشدة
المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ،
فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما
ينبغي أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العماراة والتنظيم ، فوجدت الدولة
الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قليل في قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

وليست هذه القوة فادرة في أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ،
فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذي
جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلاده ،
ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقبل عن يحيى
ابن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله
وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود في عنقه فلا
يقرر أحد أن يحلّه عنه حتى يحلّه يده »

وليست قوة البنية شرطا في أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة
يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى
غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب
الحاجة وأن يصرع المطارذ ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على
أهبة لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم
يرزق ضلّاعه الأركان أو شك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة في مأزقه وفي أيام سلطانه ، وأسعفته معها
مهابة يمنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضر مودته ، فلما كان أسيرا
في المغرب الأقصى كان صاحب « سجناسة » ينكل بأعوانه ولا يجبر
على مجابته بما يسوءه ، وكان يعمل في مغيبه ما لم يكن يجترئ على
عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات في مأزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التي

لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الادلاء الى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلقى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق انه صلى الصبح يوما في جامع عمرو فمرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الامام وقال له : « قد حصلت لي عشرة آلاف دينار »

ولو رجل غيره في مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب . فضحك المهدي وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغلظ ميثاقه اتنى اذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس في الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وراغ منه .. وأجمع النية في تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفي مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد في وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاظه اذا تثبت من حقيقته ، فما عثم المهدي أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه — وكانت تربيته لابنه كما تقول في مصطلح هذه الأيام تربية رياضية — فوقع في نفس الوالى ان رجلا يمود بعد النجاة في طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج في طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله . أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى أخذه . فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مرياً ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع في طلب كلب ... »

وقد يكون الوالى أطلقه لئال أخذه منه كما يقول عريب ابن سعد في

تاريخه ، وانه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه- وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد ..

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه يادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا فى يديه أيام استاره ، فنولى الدعاة نذب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتمود هؤلاء الاعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خلق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم - داعى اليمن ابن حوشب - فعزله وهو الذى كان أستاذ دعائه فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهد له وجئح القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه ، ونمى اليه انهما يأتسران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصمهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

وأطلق دعائه الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليشرخوا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الإمويين بالأندلس وبلاد الادارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ يبدى أزمة الثورات فى كل اقليم من

تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وان الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير اليها ، تغرر بالثوار ، وان الثورة بعد فتح مصر تمة منتظرة قد تأتي عفوا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هبة الدولة العباسية ، فلا يعنى الثوار بالخروج عليها في غير حذر ولاندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين والراجح من المقابلة بين برامج المهدي انه كان مقصور اليد في حملاته على مصر . كان يوصى بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل في التخذييل وكسب الأنصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التي تأتي على غير انتظار فيموت خليفة في بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويفتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب الى المهدي بالحض على انهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجذوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل في أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التي عقد لواءها للزعيم البربري حباسة ثم حملة تبعة الاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الى الاسكندرية

أما الخطة التي يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهي ارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته ، ويبتنى فيه المدينة التي أزمع أن يتخذها حصنا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين، وقد شغلته فتن المغرب زمنا وأخرجته ايما احراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهدي حوالى سنة خمس بعد الثلاثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات » ..

ولم تفارقه طبيعة الحيلة والدهاء في بنائه للمهدي ، فاتفق لها موقعا

يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، واتحى جانبا ثم بنى على مقربة من المهديّة مدينة أخرى سماها باسم زويلة إحدى قبائل البربر التي تواليه ، وخصص زويلة للدكاكين التجار ومخازنهم تخفيها عن المهديّة وعزلا بين السكان ومراقبتهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « ان أموالهم عندي وأهاليهم هناك . فان أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادوني بكيد وهم بالمهديّة خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها نولى عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وقتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو في وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تديرها ، وبلغ من هيئته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتفاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدي ورهبة من تقمته

مات المهدي في سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد في تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو في نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنياؤها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التي كانت تنازعه في المغرب وصقلية من الأغالية والادارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالاندلس والعباسيين . يبعداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير حاكم

انه فرغ لمنعم نفسه أو غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفي سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقي بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادي الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم



المُعزِّدِينِ لِلَّهِ

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأولى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذي فتحت مصر وبنيت القاهرة في عهده ونقل مقر الملك إليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات في مراحل التاريخ بالأربعينات

تولى الملك بعد المهدي ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطن من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطئ الإيطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صدّ الخوارج الذين أطعمهم فيه موت أبيه ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها في عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوي ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليوقف زحفهم ولا يخلو الطريق أمام أحدهم ، ومات مجتهدا في سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز لدين الله الذي كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

قلنا في كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبي عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف ..

وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التي تتصل بالخلافة الفاطمية جميعا ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع في علوم العربية ، وكان له شعر وثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام في تلك الأيام

ويروى عن أئفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأئف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أئفن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أئف من جهلها فأصبح يَأئف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين ، فهمته أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعازل التي يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل في طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما أنسوه من مودته وكرمه وأظهر ما ظهر من خصال المعز التي يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الاتقاع بالتجارب والعبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال، وانه كان جيد الفراسة في أحوال الأمم واعتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الاسطول في الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدّد حفر الآبار في الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يفار

من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد في مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوا بها في حضرته ، وكذلك أمر شعراء أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرًا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بإبلاغها الى رئيسه « المباشر » ليلغها من جانبه الى الخليفة ، فنضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليميدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يحضوه الطاعة خالصة بغير ريبه ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقي أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذى جاء في كتاب « الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن في مقبرة أبى سيفين ، ويقال في سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملا من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يعنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف في الدين ولا في المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الارض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفي يديه سيفان) ... وقيل انه أمر بإقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليقين في حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعاة البطرق له عند الخليفة ..

فهذا وما جبل عليه المزم من المجاملة وما تعودته من الترحيب في مجلسه بالمتناظرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه في مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المزم بعدة سنين ، يوم كانت هذه الاشاعة وما اليها موئلي العزاء في أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنين

ومن تفرسه في استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الفلاء وقتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاية الأمر ، ومنه في رواية المقرئى ان صبية عرضت في مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومتها فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هي ابنة الأخشيد محمد بن طعج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشتريتها لتستمتع بها »

قال المقرئى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المزم بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل ققص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المزم : يا اخواتنا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتستمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غبرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحيون المواسم والمواكب ويتدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المزم — على خلاف المعهود من سياسة أسرته — حظّر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيراً للأخلاق مما أصابها في تلك الأيام وأدرك

منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الأخشيذ

وقدم جوهر الى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترب عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوقاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشرعة متبعة ، وهى اقامتكم على مذهبكم وأن تركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل المتجدد التاكيد على الأيام وكرور الأعوام ... »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم — وهى شهرة صحيحة — فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الجبال أجراسا ليسمعا العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وإن غرابا وقع على الجبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الجبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين اله الحروب .. !



هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلا والفريان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على جبل كافية لدق الأجراس على جميع الأسوار ، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الجبل لأسباب كثيرة تحرك الجبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة الى الأجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون ان المهندسين هم الذين حركوا الجبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفي التنبيه الى مافيه من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التي تخلقها الأقاويل من هذا القبيل ..

واتبع جوهر سنة دولته في تخطيط المدن وتشبيد العماير ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ماتوارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر في بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء في أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن القسطنطينية ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاها - أى القطائع والقسطنطينية - كانت عاصمة للقطر في أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج القسطنطينية سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما فلأجهم في تجديد المعالم والشارات على ما ألعنا اليه



وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التي أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلاً انه لم يقصد الى مصر طمعا في زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان في برنامجه المعز خطة تملئها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضامنا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية

يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملا بمذهب الاسماعيليين
 ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين
 طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم
 والمحكوم ، ولم يلبث المعز في القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع
 بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت
 جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التي تطلب الغنيمة وتخشى من
 عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل
 الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائي من يطعمه المال اذا
 تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعدته بمائة ألف دينار .. قبل الصفقة ،
 وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن يهزم هذا بجموعه عند
 التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه آكياس الدنانير ... ولكنها لم تحو
 من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع
 النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعا عن شركائه ، ودارت الدائرة
 على القرامطة في ذلك اليوم فقتلوا من الغنيمة بالاياب ودبت المخاوف
 والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر
 ولم ينته عهد التوطيد بانهاء عهد المعز (في سنة ٣٦٥ للهجرة) فان
 ابنه العزيز الذى تولى الملك بعده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته
 غالبية على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها الا عجل
 بقمعها وأعاد الأمور في أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات (سنة
 ٣٨٦) وقد بدأت في أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتناثرت
 هنا وهناك بذور الانحلال التي اختفت الى حين في ابان نضرة الدولة
 وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتماقب الضعفاء من
 الأمراء ..

الحاكم بامر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة في شخص انسان ، لو لم يكن

المعربات الاسلامية - ٢ - ٢٨

تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بإنكاره ، اذ كان مجموعة من النقائص والفرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم بمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالمصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يأتف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل في الظلام ويختبئ في حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغرب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التي يغفرها المنتطسون ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا في الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خيئا ماكرا ، رديء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك في أحوال العقيدة ماذكر عن هذا الحاكم بأمر الله : وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخي القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخي السنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفي الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض في آخر الزمان ، وأطبقت النقائص على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفي رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هي أعجب السير وأوضح السير
في وقت واحد ...

هي أعجبها في موازين النصوص والأوراق ، وهي أقلها عجبا في ميزان
علم النفس الذي لم ينفصل عن التاريخ قط في الكلام عن دولة كما انفصل
عنه في الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل انها حالة من
حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التي تعرف بهوس الغموض

Mystic Hallucinosi

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ، يفرطون في التفاؤل
والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن
مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعاني المزدوجة التي تحمل في أطوائها
ماينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من
الحالات التي تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع في روع المريض أن الناس
بضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم
انعراض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح
ويسكن المتهمسون بالأسرار الى مناظر الظلام ، ويستهوهم الليل
بخفائيه ، وتروقهم الوحدة في الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله في جميع
الأوقات ، بل هي فوبات تمترية ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة
والموهوبين في بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كماداتهم الى صدمات
الطفولة وأزماتها التي ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكن في الوعي
الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة
أو رويدا رويدا في مقتبل الشباب

وغير « الفرويديين » يملكونها باضطراب الحواس ولاسيما حاسة
السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه
الأصحاء ولا يسمعون ، ويحدث أحيانا أن ينظر الى الشيء المائل فلا يراه

ويصنف الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد في الرجوع بالملحة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية ..

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التي تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشئ ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا في عهد دسائس القصور وسياسة الحریم ، وتركه أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم الملوك برجوان والقاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار رعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا في دسائس القصور وسياسة الحریم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو في سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ماحوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك مايطاط به ويملك الوسائل الى استطلاع . كان في الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريية والتساؤل . فاذا كان مع هذا قد نشأ في بيئة التنجيم وكبر وهو يصغى الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التي تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب في ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالأسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف في نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون في استغلالها ويبالغون في تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزي والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت ..

ولم يكن الحاكم من المرفقين في الشهوات فتختل أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر للخمر أو يستطيها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالطاح طيبه الذي خطر له أن يعالجه بإدخال السرور

الى نفسه في مجالس الفناء مع يسير من الشراب ، وانما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى في تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث في المالنخوليات واحتاج في مداواته منه الى جلوسه في دهن البنفسج وترطيه به ، وان كثرة سهره أيضا وشغفه بمواصله الركوب والهيان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الفناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يتلى من حوله بالمتزلقين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة - غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائص التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارا لأنه يتوهم انه يروض نفسه بالتكشف والتهجد ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بمقاب من ينحرف عنها ، فتتكشف له الحجب التى لا تزال مسدلة دونه ، ويتمهم نفسه كلما خفيت عليه مسائرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليأس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقي عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائم « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المزمع فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب

وتستشرى حتى تناولت كل شىء فى الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا محسوبا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها فوازع الشقاق تبعا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للأمنين ولأنفسهم وللقيادة والحكام ولم يمس غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم ..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمي عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمي عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتتضج فيه السنايل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطمعه النار ذات الوقود

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناء ولا من الهادمين ، وانما هو مهذوم تداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا يزمام السلطان في مصر قليل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأي في أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي الملقب بالعاقد ، تجاوزت المناير بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذي تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه في مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسائة للهجرة هي خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذي عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التي عمرت بين المغرب ومصر مائتي سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقرئ عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « وأضعف العاقد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره في ازدياد وأمر العاقد في نقصان ... ومنع العاقد من التصرف حتى تبين للناس ما يريد من ازالة الدولة ... فلم يبق للعاقد سوى اقامة ذكره في الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيال والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاقد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها في حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوعة ، وبين القضاء الذي يجريه صاحبه ، والقضاء الذي يجري على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجطان ودالت دولة الزوال فشالت كفتها في ميزان الزمان

حَضَارَةُ مُحَضَّرَةٍ

إذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى في أيام الفراعنة جاز أن يقال أن حضارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة في أيام الفاطميين ، فإن صبغتها المصرية كانت غالبية على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر في وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية فلم توجد في مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التي وجدت في القصر الشرقي وتفاوتت تقديرها بين ستائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع ..

وتنافست القصور في اقتناء الكتب النادرة ، فكان في كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الرفوف وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال

وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وإن خالف به اجماع الآراء ..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المشور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه فى عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصافون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا ان نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبداع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود يبدائع المصنوعات ، أو تأتى يبدائع المصنوعات وتعود بما هو أبداع وأعلى ، دواليك فى مواسم العام كله لانتى ذاهبة آية على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على

مواسم الأزمئة القابرة وأضافت إليها ، فبعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا انيه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبی ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسطة ويخرجوا اليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقيها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلمون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للأحياء لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

أمرت أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر
بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :
مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وان خالفونى فى اعتقاد التشيع
وهو الذى بضع نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملا فى
نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برثائهم ، وقصيدته التى قيل
فيها انها أبلغ مانظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرائهم المهجور :
لهنى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائقها
من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعداء ووجه الود لم يمل
أسلت من أسنى دمعى غداة خلت
رحابكم وغلت مهجورة السبل
أبكى على مآثرات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى

وموسم كان في يوم الخبيج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والميدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصرىكم من الأسل
والخيل تعرض في وشى وفي شية
مثل المرائس في حلى وفي حلل
وما حملتم قرى الاضياف من سعة الأ
طباقي الا على الأكتاف والمجل
وما خصصتم بير أهل ملتكم
حتى عمتهم به الأقصى من الملل
كانت روايتكم للذمتين وللض
سيف المقيم وللطاري من الرسل
ثم انطراز يتيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الارض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخره
وجبههم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبي لهم أبدا
ما أخر الله لي في مدة الأجل
ولم يؤخر له في الأجل ، فاقضى أجل الدولة في سنة سبع وستين
وخمسائة واقضى أجل شاعرها في سنة تسع وستين وخمسائة

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ . بِيَدِكَ
الْخَيْرُ . إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الفهارس

فهرس

عَبَقَرِيَّةُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ

صفحة

| | |
|-----|------------------------------|
| ١١ | تقديم |
| ١٥ | صفاته |
| ٢٩ | مفتاح شخصيته |
| ٣٥ | اسلامه |
| ٤٣ | عصر الامام |
| ٥٥ | اليعة |
| ٨٩ | سياسته |
| ١١٧ | حكومته |
| ١٢٥ | النبي والامام والصحابه |
| ١٣٣ | ثقافته |
| ١٤٩ | في بيته |
| ١٥٤ | صورة مجلّة |

فهرس

الحسینُ أبوالشهداء

| صفحة | |
|------|---------------------------------------|
| ١٥٩ | مقدمة |
| ١٦١ | مزاجان تاریخیان : طبائع الناس |
| ١٧٠ | الخصومة : أسباب التنافس |
| ١٨١ | الخصمان : موازنة |
| ٢٠٢ | اعوان الفريقین : رجال المسكرین |
| ٢٠٨ | خروج الحسین : الحسین فی مكة |
| ٢٢٢ | هل أصاب ؟ : خطأ الشهداء |
| ٢٣٧ | كربلاء : الحرم المقدس |
| ٢٦٠ | جزيرة كربلاء : موطن الرأس |
| ٢٧٣ | نهاية اللطف : من الظائر ؟ |
| ٢٨٢ | فی عالم الجمال : عاشق الجمال |

فهرس

فاطمة الزهراء والفاطميتون

صفحة

| | |
|-----|-------------------------------|
| ٢٩٠ | تمهيد |
| | القسم الاول : فاطمة الزهراء : |
| ٢٩٤ | ام الزهراء |
| ٣٠١ | نشأتها |
| ٣٠٤ | زواجها |
| ٣١٨ | بلاغتها |
| ٣٢٤ | في الحياة |
| ٣٣١ | وفاتها |
| ٣٣٦ | شخصية الزهراء |
| ٣٤٠ | الذرية الفاطمية |

القسم الثاني : والفاطميون :

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٣٤٦ | الفاطميون |
| ٣٥٣ | النسب |
| ٣٦٣ | الباطنية |
| ٣٧٦ | الباطنية الفاطمية |
| ٣٩٤ | حسن بن الصباح |
| ٤١١ | السرية الباطنية |
| ٤١٦ | بناة وهدامون .. ومهدومون |
| ٤٢٧ | المعز لدين الله |
| ٤٤١ | حضارة محتضرة |

[illegible]

**The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL-ĀĀKAD**

Volume II

**DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI**